

الباب الاول

فرنسا وسوريا

obeikandi.com

الفصل الأول

العهد الاقتصادي الاول

١٩٢٠ - ١٩٣٦

- ١ -

لما تم لفرنسا احتلال سوريا الداخلية وهدم العهد الفيصلي فيها على ما ذكرناه في الجزء الاول قررت مضاعفة جهودها بدون تريث في محاربة الفكرة العربية والحركة بسبيلها . واتحاد شعلة تلك وتعطيل هذه وشلها ولو بقرة الحديد والنار لانها لم تكن تجهل ان عهد فيصل ليس إلا مظهراً للفكرة ، وان سوريا وخاصة دمشق كانت من اهم المراكز التي نشأت وترعرعت فيها هذه الفكرة وقامت فيها الحركة بسبيلها ، كما لم تكن تجهل ان عهد فيصل قد وسع انتشارهما وقوامهما حتى صارت دمشق تغلي بهما في كل مناسبة وفرصة ، ولاسبان سوريا قد تمتعت بالكرامة والعزة القومية بكل معانيها في هذا العهد ، ولم تكن تجهل كذلك ان اتحاد الشعلة وتعطيل الحركة لا بد منها لتحقيق مطامعها الاستعمارية في القطر السوري بشطريه الساحل والداخل بما املته عليها تجاربها الباغية في المغرب العربي .

ومن اول ما فعلته انشاء محكمة عسكرية في دمشق استمرت قائمة الى آخر ايامها في سوريا ومحكمة عدد كبير من رجال الحركة السوريين والفلسطينيين واللبنانيين الذين غادروا دمشق غيابياً والحكم عليهم باحكام الاعداء والحبس الطويل متوخية بذلك نشر الارهاب في جو سوريا اولاً وسد باب الرجوع ثانياً امام من تعرف فيهم قوة العقيدة القومية والنشاط والنضال . اما الذين بقوا في سوريا من الذين يمتوث الى عهد فيصل وروحه ولم يكونوا بارزين بروز اولئك فقد اصلت فوق رؤوسهم السيف ووقفت لهم بالمرصاد تحصي عليهم الانفاس وتسارع الى اتحاد كل نشاط وحركة منهم بالثريد والنفي والمحاكمات العسكرية في خطير المناسبات وتافها .

وكذلك كان من اول ما فعلته إعلان حل الجيش العربي ووضع اليد على مخازن السلاح وجمعه باقى الوسائل من ايدي المسرحين والمتطوعين والاهلين عامة، ونقل غير قليل من كبراء ضباط الجيش المنحل الى جزيرة ارواد معتقلين تحت رقابة صارمة وفرض غرامة حربية مقدارها مئتا الف جنيه ذهبية وجبايتها بالحديد والنار. واقد جهزت سبع حملات عسكرية على جبال اللاذقية وحملتين على جبل عامل وحملة على منطقة حصن الاكراد واخرى على حوران، وحملات عديدة على المنطقة الواقعة بين اسكندرونه غرباً وحماه شرقاً وجسر الشغور شمالاً فهاجمت هذه الحملات القرى، واحرقت ودمرت منها اكثر من ثلاثمائة، وصادوت ما وجدته فيها من اموال واعلاق وباعته علناً واعتقلت عدداً كبيراً من سكانها حتى لقد شمل الاعتقال عدداً غير يسير من النساء بحجة ابواء الثوار واعدمت عدداً كبيراً من المعتقلين.

البعثة الاقتصادية

وقد ابقت الحكم سورياً بيد حكومة علاء الدين الدروبي التي كانت مؤلفة من المعتدلين والمستسلمين، وسارعت في ذات الوقت الى انشاء بعثة اقتصادية في دمشق باشراف مندوب المفوض السامي جعلتها ناظمة لجميع السلطات والاعمال الحكومية والتشريعية والادارية والاقتصادية والأمنية وانشأت هيئة مصغرة لهذه البعثة في حلب باشراف معارف مندوب المفوض، وهيئات مصغرة اخرى باشراف معاونين في مركز المحافظات. واقامت بالاضافة الى ذلك مستشاراً الى جانب كل وزير وكل محافظ وكل قائمقام مع ما يحتاج اليه من مساعدين وتراجمه جعلت اليهم الامر والتوجيه والحل والعقد.

واقد لفت هذا الاسراف في الوظائف وتعقيداتها نظر موسيو جو تار احد ورجال مجلس الشيوخ فوصفه وصفاً تمكيمياً لاذعاً امام مجلسه في جلسة ٦ نيسان ١٩٢١ حيث قال :

« عندما يصل المسافر يشمر ان في المفوضية الافرنسية مصالح عديدة مهمة وحالما يدخل السراي يخيل اليه انه منتقل الى اعظم وزارات باريس بعدد موظفيها والى

جانب معاون المندوب السامي مستشارون يوازي عددهم عدد الوزراء ومعاونيهم في فرنسا . ويريد كل مستشار أن يكون له مكتب خاص . وحيثما التفت ترى معاوئي مستشارين ومستشارين متدربين وموظفين وكواتب - وما أكثر الكواتب - وتري الى جانب هؤلاء أركان حرب الجنرال غورو وغرفته السياسية ومصلحة الاستعلامات وبالاختصار موظفين كثيرين بخططهم العدد . ففي المفوضية اذن عدد يزيد كثيراً على ما ينبغي ولا تكاد تجد رابطة في ما بينهم ويكاد كل منهم يجهل الآخر ويتصرف منفرداً بنفسه . واذا نظرت الى شكل الادارة في الحكومات الأربع التي احدثت اخيراً وهي لبنان الكبير ودمشق وحلب والعلويين رأيت المستشارين مرة اخرى حول كل حاكم من حكام هذه الاقطار وفي كل منها حكام فرنسيون ماعدا دمشق وتري مستشارين الى جانب الرئيس في كل متصرفية واطن ان في جانب هؤلاء المستشارين مستشارين مساعدين ايضاً . . .

سلطانة المفوض السامي

اما المفوض السامي فقد كان بمثابة الملك بما كان يحيط به نفسه من مظاهر الابهة والسلطان ، واصبح مصدر السلطات ورئيسها جميعاً ، يسير في نظام فردي ديكتاتوري لايبالي بما يصنع ولايري انه مسؤول عنه امام احد ، ويمنح نفسه ماشاء من صلاحيات تشريعية واجرائية وقضائية ، ويصدر ما يشاء من قوانين ولوائح ، ويلقي بجرة قلم ما لا يروقه من انظمة وقوانين موجودة (١) .

وقد ابعد كل صالح سليم العاطفة عن الوظائف وخاصة عن الرئيسية منها وقصرت هذه على المائعين والمستسلمين والمتآمرين الذين كانوا على صلة ما بالفرنسيين ودكلائهم . ومثل هذا فعل في الشرطة والدرك وكتائب الجيش المحلي التي انشئت بعد قليل بحيث كانت هذه القوى وسائل طيعة لتنفيذ كل ما ترسمه السلطات الفرنسية

(١) انتفخت هذه التعريفات والصلاحيات السلطانية الواسعة الى ان اصبح المفوض السامي يلقي دولة ودستوراً ومجلساً نيابياً ويمتثل رئيس جمهورية ورئيس وزراء ويعزلهم وينشيء دولة ودستوراً ومجلساً نيابياً ويعين رئيس جمهورية ورئيس وزراء بجرة قلم ايضاً كما فعل في سني ١٩٣٠ و ١٩٤٣ في سوريا ولبنان .

من خطط ، والتفنن في التزلف الى هذه السلطات بما يتسنى مع ما تبيته من مقاصد مع الاحتفاظ بقياداتها العليا والثانوية للضباط الافرنسيين .

المصالح المشتركة

ثم سلخت عن الحكومة السورية مصالح كثيرة جداً وانشأت لها ادارة خاصة سميتها المصالح المشتركة وجعلتها مرتبطة مباشرة بالمفوضية العليا وتدار بواسطة رؤساء وموظفين افرنسيين مع مساعدين من اللبنانيين في الدرجة الاولى والسوريين في الدرجة الثانية من تلك الطبقة التي ذكرناها آنفاً متدربة الى ذلك باشتراك هذه المصالح بين سوريا ولبنان ، فكانت هذه الادارة حكومة داخل حكومة ، مع الامتياز الكبير لها دون مصالح الحكومة السورية العادية . وقد كانت تشمل الجمارك والبرق والبريد والهاتف والسكك الحديدية والموانئ ، والمطارات والمنازل والمهاجر ومراقبة الشركات والامتيازات والاحتكارات والملكية الفنية والتجارية والصناعية والامن العام والجوازات وكتائب الجيش المحلي وشؤون العشائر الخ . .

وكانت ايرادات هذه المصالح تجبي من قبل ادارتها الافرنسية وتجعل لها ميزانية خاصة ينفق منها على المفوضية السامية وملحقاتها وعلى الجيوش المحلية بالاضافة الى مرتبات موظفي هذه المصالح ونفقاتها وكانت تدفع احياناً ضعفاً ونصفاً من مرتبات ونفقات الحكومة السورية بمرمتها .

الموظفون الافرنسيون

وعين بالاضافة الى كل هذا عدد عديد من الافرنسيين في المصالح الحكومية السورية وخاصة ما يسمى بالمصالح الفنية كالمعارف والكاداسترو والري والاشغال والتجارة والصناعة ، كثير منهم لا مؤهلات لهم إلا فرنسيتهم ، ونظاھرم بالنفقة الكاذبة والشعوذة المكشوفة ، وكان في مرؤوسيتهم من يفوقونهم كفاءة وعلو شهادة .

المصرف السوري اللبناني وعملة الورقة

وكان من اول الاعمال التي بادرت اليها السلطات الافرنسية انشاء فرع للمصرف السوري اللبناني الذي كان اشىء في لبنان في العهد الفيصلي ومنح امتياز اصدار العملة الورقية ، واصدار تشريع بتداول هذه العملة في سوريا . وجلّ رأس مال هذا المصرف افرنسي كان في بدئه عشرة ملايين فرنك ثم رفع الى عشرين مليوناً ومنح الامتياز مقابل سندات الدفاع الوطني على الحزينة الافرنسية . وقد اشترى في البدء سندات بقيمة خمسة وعشرين مليون ليرة سورية اصدر مقابلها بنفس القيمة عملة ورقية . ولم يكن لتلك السندات قيمة وثيقة كما انه لم يكن من الضمانة الذهبية لهذه العملة إلا قدر زهيد جداً ، فعدت هذه العملة نافذة في سوريا ولبنان تؤخذ بها سلعها وذهبها أخذاً هو بالسلب شبه . ولقد خلف المصرف السوري اللبناني المصرف العثماني ، وكان للسوريين واللبنانيين فيه ودائع بقيمة مليوني جنيه ذهباً فأصدر المفوض السامي تشريعاً اعيدت الودائع بموجبه إلى اصحابها من تلك العملة الورقية فعاد على المصرف من هذه العملية وحدها ربح يوازي رأس ماله على حساب خسارة اصحاب الودائع من اهل البلاد ! وكثيراً ما بلغت ارباح هذا المصرف ١٠٠ ٪ و ١٥٠ ٪ بسبب ما كان يناله من امتيازات ويصدر من اجله من تشريعات ويفرق السوق بعملته التي يسحب منه مقابلها الذهب والاسلم !

ضباط الاستخبارات

ومن جملة ما كان إقامة ضباط باسم ضباط الاستخبارات في مختلف مدن سوريا وقبائلها ، فأنشأوا شبكة جاسوسية واسعة حشدوا فيها كل حاقذ وفاسق وفاسد ، واخذوا يستعينون بهم على اثارة النعرات والتفرقة والوشايات التي كانت وسيلة من وسائل الكيد والمكر والادهاق والارهاق ، وقد كان من امرهم في ما بعد ان كانوا يؤلبون الاشرار على الاخيار ، ويوجهون ما كان يجري من معارك انتخابية في الجرى الذي ترسمه السياسة الافرنسية ، ثم وصل امرهم الى تأليب انصارهم ومواليهم على الحركات الوطنية والأهداف الوطنية والعهود الوطنية ورجالها .

أبدبرهم في الاوقاف والمناهج والبادية

وبما كان كذلك وضع الاوقاف الاسلامية تحت اشراف مفتش إفرنسي بأمر البعثة الافرنسية ، وتوسيد المناصب والوظائف الوقفية والدينية الى الانصار والمؤلفين والمنافقين ليكونوا وسيلة من وسائل دعايتهم .
كذلك اسرع الافرنسيون الى تعديل مناهج التعليم في مختلف الدرجات الدراسية ، وجعلوا للغة الافرنسية والثقافة الافرنسية المركز الممتاز فيها ليضمنوا نشوء الجيل السوري الجديد نشأة افرنسية موالية .
ولم يغفلوا البدو والبادية السورية في منهجهم فأنشأوا الصلات بينهم وبين مشايخها واستبدلوا بمن اشتبهوا فيه من هؤلاء المشايخ اشخاصاً آخرين واغرقوا عليهم المرتبات والمنح ليضمنوا طاعتهم وهدوؤهم .

استغلالهم الطائفة في الدروز والنصيرية في سبيل توطين استعمارهم

كذلك عمدوا إلى استغلال الصفة الطائفية الخاصة في الدروز والنصيرية والشركس والأرمن . هادفين بذلك الى جعل جبل الدروز وجبال اللاذقية حصنين عسكريين واستعماريين لهم ، تحت اشرافهم او حكمهم المباشر ، والى جعل الدروز والعرب والشركس والأرمن عدة لهم في الأزمات والمواقف العصبية .
ولقد كان للدروز تقاليد وعادات واعتبارات وزعامات ، وكانت احداث تاريخية وثورية في زمن الدولة العثمانية تمت الى هذه التقاليد والعادات والاعتبارات والزعامات بصلة ؛ ولقد جرت التقاليد الجاهلية على ان ينظر السنيون اليهم بنظر غير مستحب من ناحية العقائد والطقوس الدينية مما ادى الى انقباضهم عن اخوانهم في العروبة انقباضاً فيه شيء من الحذر والتكتم والخصوصية .
وحالة الدروز هذه تنطبق برمتها على النصيرية الذين سموا بالعربيين ايضاً وسميت منطقتهم اللاذقية ببلاد الملوكيين وجبال العربيين لانهم فيها اكثرية .
ولقد استغل الافرنسيون هذه الحالات الطائفية الخاصة واخذوا يبشون في

رؤوس الطامعين والطامعين من الزعماء المخاوف من السوريين والوحدة السورية
وانها وسيلة لابتناعهم وغمرهم بالاكثورية السنية وحرمانهم من الوظائف والمناصب
والمنافع .

ولقد كانوا مهدوا لهذا في المنطقتين منذ عهد فيصل ؛ فاستطاعوا أن يفتشوا بينهم
وبين بعض زعماء الدروز ومتزلفيهم وطامعيهم الصلات وان يوجدوا لهم فيهم
الانصار والاعضاء . وكانت مهمتهم في النصيرية اسهل لان منطقة اللاذقية كانت تحت
احتلالهم منذ انتهاء الحرب . وبما عمدوا إلى بثه فيهم بصورة خاصة انهم ايسوا عربا
وانهم من بقايا الصليبيين دماً وروحاً وان تسمية النصيرية هي معدلة او محرفة من
كلمة النصرانية ، واستغلوا ما كان من اختصاص السنيين في المنطقة نفسها وخاصة
في مدينة اللاذقية وهم اقلية بالنسبة اليهم بالمناصب والرعاية في زمن الدولة العثمانية ؛
وعينوا بعض ناهيهم ومتحركيهم في المراكز والوظائف وصاروا يقدمونهم على
السنين ؛ بما ساعد على إثبات هذه الحركة بشمرنها العاجلة حيث اصبح النصيرية او
بالأصح الطامعون والطامعون والمتحركون منهم يشعرون بشخصيتهم الخاصة ويرون
هذا مفيداً لهم مادياً ومعنوياً ، ويوثقون صلاتهم بالفرنسيين ويتقربون اليهم
ويتمسكون بهم ويظهرون لفرنسا الاخلاص في سبيل الاحتفاظ بما صار لهم ؛ ولا سيما
انهم قد تمكنوا بذلك من رقاب سوادهم وتسخيرهم لمصالحهم ومنافعهم تسخيراً قوياً
فشت فيه السخرة والرق والرشاوى والغرامات وابتزاز الاموال والاملاك فشوا
عظيماً اصبح الشعب به بعد قليل من الزمن يعاني شدائد الضك والفقر .

وقد جند الافرنسيون عدداً كبيراً من شبان المنطقتين في كتائب الجيش المحلي
التي انشأوها بعد قليل وعينوا بعض ناهيهم وابناء امرهم المتزعمة ضباطاً ؛ فكان ذلك
وسيلة من وسائل توثيق الارتباط ونجاح الخطة المرسومة .

وبثوا كذلك المخاوف من السوريين في الجاليتين الشركية والارمنية وجعلوهم
يرون فيهم حماهم وفي الارتباط بهم فائدتهم . وجندوا منهم عدداً كبيراً في كتائب
الجيش وعينوا بعض ناهيهم ضباطاً فكان هذا كذلك وسيلة من وسائل توثيق
الارتباط ونجاح الخطة المرسومة .

بل لقد حاولوا أن يفعلوا شيئاً من هذا في حلب وحمص وحماه ويشيروا الطامعين
المائعين على العاصمة والتمرد عليها استهدافاً لتفريق الكلمة وتأريث البغضاء بين
اهل الوطن الواحد والامة الواحدة .

وهكذا قامت في سوريا إدارة استعمارية شديدة جعلت اكبرهما ان تحول دون
اي تقدم جدي وان تصد أي حركة قومية ، وان تعطل اي حيوية ونشاط ، وان
تبت روح التفرقة بين مختلف الفئات والطوائف والمقاطعات ، وان تشغل الناس
بمشاكل ومشاكل توهن قواهم وتعطل نشاطهم ، وان تستغل خيرات البلاد وثرواتها
وتجارتها اوسع استغلال وابشعه .

- ٣ -

تجارب الحكم الهزيلة

ولم تلبث هذه الخطط الماكدة الحثيثة ان اخذت تؤتي اكملها بسرعة ،
وفي ميدان الحكم والادارة اولاً حيث اخذت اصوات الطامعين في المراكز
والمناصب المتآمرين مع السلطات الفرنسية والمندمجين في توجيهاتها في حلب وجبال
اللاذقية والدروز ترتفع ضد حكومة الشام التي كانت حكومة سوريا الداخلية
جميعها . وتظاهر المفوض السامي بالاستجابة الى رغبات السكّان فخلق من حلب
دولة ومن منطقة اللاذقية دولة ومن جبل الدروز دولة ومن دمشق دولة ؛ وذلك
بعد اسابيع معدودة من الاحتلال ، وأزال بذلك مظهر الحكومة السورية الواحدة
الشاملة ، وتوارى شكل الوزارة ليحل محله شكل الحاكم العام في عواصم هذه
الدويلات .

استقلال جبل الدروز واللاذقية واصباح الاستعمار والحكم العسكري فيهما

وبما كان في جبل الدروز نتيجة للدسائس والتوجيهات التي اشرنا اليها ان تم الاتفاق بين السلطات الافرنسية وزعماء الجبل على ان يكون الجبل مستقلاً ومرتبطة بالمفوضية العليا مباشرة ، وان قرر المجلس التمثيلي الذي نشأوا الى جانب الحاكم الدرزي بناء على ذلك الاتفاق قبول الانتداب الافرنسي ورغبتهم في بقائهم مستقلين ضمن كياناتهم الخاصة وغير مندجين مع سوريا . ونقول من قبيل الاستطراد ان الافرنسيين بالرغم مما كان من مآشاة زعماء الجبل والأمر لهم في ما وجهوه وارحوه ابوا إلا المزيد فاستسبحوا أول فرصة لجعل ذلك المجلس يقرر ان يكون الحاكم العام افرنسياً تحقيقاً لهدف الادارة الافرنسية المباشرة وترسيخ القدم الاستعمارية العسكرية الذي استهدفوه ، فبدأ بهذا العهد السير نحو فرنسة الجبل ان صح التعبير فعدت الأعياد والماراسم الافرنسية مرعية في الجبل ، وصارت اللغة الافرنسية في مناهج التعليم والمظاهر الافرنسية المتنوعة تشغل المكان الأول فيه . وهكذا نقض الافرنسيون ما ابرموا مع زعماء الجبل وبدأت خفايا نواياهم الغادرة التي ستروها بتخويف الدروز من الاندماج باخوانهم السوريين واستهدفوا بها في الحقيقة دمجهم بهم ، بل التحكم فيهم تحكم المالك بملكه لانهم لم يكونوا ليفكروا يوماً بأن يكون من شأن الدروز ان يندمجوا فيهم ويصبحوا منهم . ولقد كان من امر احد حكام الافرنسيين ان انتفخ بما وصل اليه فأخذ يتصرف فعلاً مع الدروز تصرف الطاغية بما كان سبباً من اسباب الثورة الكبرى على ما سوف نشير اليه بعد .

ومثل ما جرى في جبل الدروز جرى في منطقة اللاذقية حيث انشأوا مجلساً تمثيلاً اكثر بته من النصيرية وحملوه على اعلان الرغبة في الانتداب الافرنسي والاستقلال المحلي وعدم الاندماج في السوريين ، ولقد كان على رأس هذه المنطقة قبل انهزام العهد الفيصلي حاكم افرنسي عام فأبقى الحال على ما هو عليه بعد ذلك ايضاً ، وجعلوا المجلس التمثيلي يسيفه ويقره . واخذ الحكام الافرنسيون يسرعون الخطى في محاولة فرنسة المنطقة وترسيخ قدمهم الاستعمارية والعسكرية فيها ، فجعلوا اللغة الافرنسية لغة التعليم واخذوا يطبعون المنطقة بالمظاهر الافرنسية المتنوعة ،

واهتموا خاصة للتبشير المسيحي بين اهلها ونحويلهم الى نصارى اهتماماً كبيراً بدت آثاره فيما كان من ثمافت المبشرين الكاثوليك الى المنطقة وكثرتهم وعظيم مساعيهم ونشاطهم .

على ان الافرنسيين لم يلبثوا ان اصطدموا بحقيقة الواقع فرأوا أن حياة هذه الدويلات غير طبيعية لا من الوجهة الاقتصادية ولا من الوجهة الادارية والاجتماعية الى درجة انها كانت اوتجالات صيبانياً اكثر منه اي شيء آخر . وكان صدر حك الانتداب من جمعية الامم بنص على تشجيع الحكم الوطني في سوريا . فهذا وذاك املى عليهم ان يتظاهروا بتصحيح الموقف فعمدوا اولاً الى انشاء اتحاد بين هذه الدويلات وجعلوا لهذا الاتحاد مجلساً ، ثم بدلوه بدولة واحدة ضمت دويلتي دمشق وحلب فقط واعادوا نظام مجلس الوزراء الذي يعبر عن شيء من معنى الحكم الذاتي وانشأوا للدولة مجلساً تمثيلياً تدعيها لهذا المعنى ، غير انهم جردوا الدولة من اي معنى من معاني الدولة ومظاهرها وكانت الوزارة وزارة إدارية لا غير ، وبقيت سلطات المفوض السامي والبعثة الافرنسية والمستشارين الافرنسيين على ما وصفناه قبل ، بحيث كان الشكل المستأنف ستاراً زائفاً للمنهج الاستعماري المرسوم والمستمر . الى هذا فقد ابقى منطقتا جبل الدروز واللاذقية خارجتين عن هذه الدولة لهما حكومتان محييتان ومجلسان تمثيليان خاصان ، استمراراً في المنهج الاستعماري والعسكري فيها والذي ينطوي فيه هدف سلخها عن الام وتوطيد الحكم الافرنسي المباشر فيها وتبديل معالمها .

آثار الاترابير الاقتصادية الاستعمارية

وكذلك لم تلبث تلك الخطط الماكرة الحبيثة ان آتت اكلها في ميدان الاقتصاد ، حيث عدلت أنظمة الجمارك فرفعت رسوم كثير من مواد الصناعة التي تحتاج اليها الصناعات المحلية وكثير من المواد الضرورية الاخرى في حين فسحت المجال امام الصناعات والسلع الافرنسية ، فارتفعت اسعار الأولى وحرمت البضائع المحلية من كثير من حاجاتها مما اخذ يؤدي إلى تضارؤها حتى نزل عدد المناويل في حلب من

(١٥٠٠٠) يعمل فيها (٦٥٠٠٠) عامل الى (٣٠٠٠) يعمل فيها (٨٠٠٠) عامل وفي دمشق من (٥٠٠٠) منوال يعمل فيها (٣٥٠٠٠) عامل الى (١٥٠٠) يعمل فيها (٣٥٠٠) عامل ، كما ارتفعت حاجات الحياة ارتفاعاً كبيراً به ظهر السوري ، وحيث اختل الميزان التجاري اختلالاً عظيماً فبلغ العجز الذي منيت به ثروة البلاد من سنة ١٩٢٥ الى سنة ١٩٣٠ أربعة مليارات فرنك من فرنكات ذلك التاريخ الموقفة نسبياً بالنسبة لفرنكات اليوم على ما ذكرته احدى الشركات الرسمية ، ويبدو الرقم كبيراً إذا ما لوحظت النسبة بين القوة الاستراكية للنقد قبل خمس وعشرين سنة وبينها اليوم ، وحيث فسح المجال للشركات الافرنسية لتحتل المركز الممتاز في البلاد وتتمتع بشتى التسهيلات التشريعية وغير التشريعية ، ولتحتكر الامتيازات والمشاريع الاقتصادية الكبرى فيها حتى لقد بلغ عدد ما نالته من امتيازات في برهة وجيزة ثلاثة وعشرين بالاضافة الى حصة البلاد بالمصرف السوري اللبناني وعملت الورقية وما سلب بطريقها من ذهب البلاد وسلمها وثرواتها .

وقضاً عن هذا فقد زبدت الضرائب حتى بلغ بعضها ١٠٠ ٪ و ٥٠ ٪ زيادة عن السابق فكان هذا ثلثة الاثافي في الضربة الاقتصادية التي انزلها الافرنسيون في البلاد .

- ٤ -

عجز فرنسا عن اطفاء شعله الوطني

على ان فرنسا لم تستطع مع كل ذلك ان تطفى شعله الفكرة العربية واد، نشل الحركة القومية بسبيلها في الشام ، بل ظلت هذه وتلك متحركة في الداخل والخارج ، وتزداد بتصرفات الافرنسيين وبغبيهم اتقاداً وشدة في احيان كثيرة، ولم تستطع فرنسا في حال ان تجعل سوريا تسيع الانتداب بشكل من الاشكال وتؤذى به صراحة او مؤولاً بدلاً عن الاستقلال والسيادة اذا استثنينا جبل الدروز ومنطقة اللاذقية .

الحركات الثورية المتنوعة قبل الثورة الكبرى

ولقد ظلت عصابات الثوار في مناطق اللاذقية وشمال حلب وبعبك تنشط نحو سنة وتكبد الافرنسيين الخسائر وتزعجهم أليماً إزعاج وخاصة في المنطقتين الاوليين . وكان بطل المنطقة الاولى الشيخ صالح العلي الذي بدأت حركته الثورية منذ عهد فيصل على ما اشرنا اليه قبل اي ان ثورته استمرت سنتين ونيفاً . اما حركة شمال حلب فقد بدأت هي الاخرى في عهد فيصل وكان ابراهيم هنانو وصبحي بركات هما اللذان يقومان بتدبيرها بالتعاون مع الهيئة المركزية للفتاة ، ثم انفرادها في ادارتها وقيادتها ابراهيم هنانو، وكانت بطولته في هذه الحركة بما مهد له الطريق ليتزعم الكتلة الوطنية وبالتالي ليتزعم الحركة الوطنية في سوريا بعد بضع سنين .

وفي الشهر الاول من الاحتلال الباغي وقعت حادثة ثورية خطيرة جداً حيث قتل رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي وزميله في الوزارة عبد الرحمن اليوسف . فقد خرجوا من دمشق بالقطار الى حوران للنظر في امر الغرامة الباهظة التي فرضها الافرنسيون على البلاد ، فقابلتهم الجماهير الساخطة في محطة خربة الغزالة واطلقت عليهم الرصاص . وبعد بضعة اشهر من هذا الحادث ذهب الطاغية غورو الى القنيطرة فاعترضت طريقه عصبة من المجاهدين رتب امرها في شرق الاردن من قبل الشهيد احمد مريود واطلقت النار عليه ، وكان معه حقي العظم حاكم دويلة دمشق ، فنجوا غورو من رصاصة اصابت كم يده المبتورة ، واصيب العظم بثلاث رصاصات غير قاتلة وقتل مرافق غورو الحربي وبعد بضعة اشهر من هذا الحادث جاء كراين عضو لجنة الاستفتاء الاميركية لزيارة دمشق ليتعرف على اثر الاستفتاء واحوال البلاد بمناسبة اعتزامه على نشر تقرير التحقيق ، واجتمع بالناس في بعض الاحياء واستمع الى تذرهم وشكاويهم ، واعادت هذه الزيارة الى الاذهان ذكرى العهد الفيصلي واهاجت النفوس . فلما اعتزم الرحيل اجتمع جمهرة من رجال الحركة وشبابها حوله للوداع ، وخطب بعض الشبان خطباً حماسية ، واخذ الشباب ينشدون احدى افاسيد ذلك العهد « نحن لا نرضى الحماية لا ولا نرضى الوصاية » كما اخذوا يهتفون بسقوط الانتداب والحائنين وكان الدكتور شهنذر الشخصية البارزة في هذه المواقف .

ولقد اثار هذا الموقف الافرنسيين لانهم رأوا فيه بوادر خيبة الامل الذي ظنوا أنهم حققوه من ارباب الناس واتحاد الروح الوطنية والقومية فيهم ، فاعتقلوا الشهبندر مع بعض رجال العهد الفيصلي من الاستقلاليين وغيرهم ممن استطاع ان يبقى في دمشق ، فألهب الاعتقال الناس وقامت مظاهرات صاحبة ، واطلن الاضراب العام في دمشق ، فكشرت السلطات الافرنسية عن نابها وانتزات دوريات من الجيش الى الشوارع واعلنت الادارة العرفية ، ومنعت التجول ، ثم حاكت من رأت ان نحاكمه وحكمت عليهم بالحبس وارسلتهم الى ارواد ، فعادت الاضطرابات والمظاهرات والاعتقالات والمحاکمات ثانية، وسرت من دمشق الى المدن الاخرى، ووقعت اشتباكات دموية في بعضها ، ولم نستطع السلطات ان تقبض على ناصية الحال إلا بشق النفس . وبما كان جديداً في باب اضراب دمشق في هذه الحوادث اسبوعاً كاملاً ، وهو اول اضراب طويل في بلاد الشام كان منذئذ نسج عليه وطول فيه فيما بعد في سوريا ثم في فلسطين .

هذا إلى ما كان من حوادث متفرقة لم تنقطع سلسلتها طيلة السنوات الثلاث التالية ، مها كانت ثانوية فان توالياها كان يقض مضاجع الافرنسيين ويعكر عليهم آمالهم ، ويكون مظهراً قوياً لاستمرار الشعلة الوطنية واحتجاجاً صارخاً على وجود المستعمرين ونصرفاتهم وبغيتهم . ولقد اثر عن سراي احد المفوضين السامين من مقال له انه كان في سنة ١٩٢٢ وحدها خمس وثلاثون حركة ثورية كبدت الافرنسيين آلافاً من الضحايا . وظل الامر على هذا الحال إلى ان انفجرت الثورة الكبرى عام ١٩٢٥ . ونسجل هنا ان الحوادث املت على السلطات شيئاً من الحكمة او بالاحرى رغبة في التخدير والملاينة فأطلقت سراح سجناء ارواد بعد سنة ونصف مع ان منهم من كان محكوماً عشرين سنة وعشر سنين وافلهم خمس سنين .

النشاط السياسي في الداخل وحزب الشعب

وفي اوائل عام ١٩٠٥ جاء سراي مفوضاً سامياً جديداً ، وبدأ منه ما يدل على رغبة فرنسا في وضع دستور للبلاد تقوم على اساسه حكومات وطنية تنفيذاً لنص

صك الانتداب الذي تم وضعه وتصديقه في عصبة الامم قبل هذا التاريخ بأمد غير بعيد ، ومسايرة للعواطف والمطالب الوطنية التي لم تحف ولم تستسلم ، لعل هذه الطريقة تنجح في ما لم ينجح فيه الحديد والدار او نحمد ما بدأ يشتد انتقاده من تلك العواطف بالتجارب والشباك الايجابية . وكان من خطوات المندوب الجديد في سنيل ذلك ارسال رسائل الى فريق من اعيان البلاد ومفكرها في شهر تموز لعام ١٩٢٥ يطلب منهم ابداء آرائهم في الاسس التي يحسن ان يقوم عليها الدستور لتستير الحكومة الافرنسية بها في خطونها التي اعتزمتها بما يدل في ذات الوقت على اضطباع تلك الرغبة بالصيغة الاستعمارية في العزيمة على فرض الدستور من عندها فرضاً . وبالرغم من ذلك اغتم رجال الحركة الفرصة لاستئناف النشاط ، وارفدت دمشق وحلب وفودها اليه يتمثل فيها مختلف الفئات لتطالب بالوحدة السورية الطبيعية والاستقلال التام ، والغاء الاشكال المزيفة من الحكم والمجالس التمثيلية ، وانتخاب جمعية تأسيسية تضع دستور البلاد وقيام حكومة مسئولة امام مجلس نيابي حر ، ومنع تدخل المستشارين ، ووضع حد لشركات الاستثمار ، والعودة الى اساس الذهب في العملة ، والعفو العام عن المحكومين والمنفيين والمبعدين السياسيين . ثم اقدم الفريق البارز من رجال الحركة الموجودين في سوريا على تأسيس حزب الشعب وفق المنهج الذي طالبوا به فاخذ ينشط ويعمل على انعاش الروح الوطنية وتوجيه الناس الى ميثاقهم القومي .

وبعد قليل من ذلك كانت زيارة بافور دمشق فكانت وسيلة لاطهار العواطف الوطنية المستيقظة نحو الجزء الجنوبي من سوريا الذي نكبه تصريح هذا الوزير المشؤوم بالصهيونية ، حيث تجمهر الشعب يريد الفتك به ، وحيث قامت المظاهرات تهتف بسقوطه وسقوط دوائه وسقوط الانتداب والتجزئة والصهيونية وحياء سوريا المستقلة الموحدة ، ونتج عن المظاهرات اشتباكات استشهد وجرح فيها عدد غير يسير من الشعب ، ولم تستطع السلطات تسكين الهياج إلا بشق النفس وبعد تهريب بافور من دمشق تهريباً .

النشاط السياسي في شرق الاردن ومصر واوروبا

هذا في داخل البلاد . وقد كان نشاط رجال الحركة القومية في خارجها كذلك قوياً ومتنوعاً خلال هذه الفترة . وكانت ميادين هذا النشاط عمان ومصر واوروبا . فمذ ان ذاع قدوم عبدالله بن الحسين الى معان من الحجاز بقصد استئناف النضال في سبيل تحرير سوريا والانتقام للعهد الفيضي وكان ذلك نتيجة لاتصال بعض رجال الحركة القومية بالملك حسين اخذ رجال الحركة الذين خرجوا مع فيصل وتفرقوا في فلسطين وشرق الاردن ومصر واوروبا بقصدون عمان الذي خط عبدالله فيها رحاله في تاريخ ٩ مارس من سنة ١٩٢١ بناء على مساعي نبيه العظمة ورفاقه الذين كانوا حلوا في شرق الاردن قبل ذلك . ولم تلبث هذه البليدة التي لم تكن إلا بيوتاً طينية اكثر سكانها من الشراكسة ان زخرت بأولئك الرجال ، وان اخذت الحركة القومية تبدو فيها جياشة تذكر الناس بالعهد الفيضي ، والتفوا حول عبدالله يتداولون في ما يجب وما يمكن . واستأنف حزب الفتاة او الاستقلال نشاطه فألف رجاله هيئة مركزية اخذت تعقد الاجتماعات وتبحث في شؤون الساعة ، وتضم اليها بعض الرجال والشباب على غرار ما كان في دمشق . ثم كان اجتماع عبد الله بشرشل واتفاقها على ان يتولى الاول الحكم في شرق الاردن كأمر على امارة مستقلة تستمد العون والمشورة من الانكليز ، فتعاون رجال الحركة مع الأمير على تنظيم الحكم في الامارة وتقلدوا مناصبها الرئيسية في العاصمة وغير العاصمة ، واعتبروا ما كان محطة لا بأس فيها للحركة التحريرية واخذوا يرسمون الخطط للسير في سبيل ذلك ، بل بدأ بعضهم بالسير فعلاً وكان لهم اثر في حوادث محطة خربة الغزالة واطلاق النار على غورو وتغذية وترتيب بعض الحركات الثورية التي كانت تتوالى في انحاء الشام والتي ذكر سراي عنها ما ذكر على ما اشرنا اليه من قبل .

ومن كان احتشد من رجال الحركة في عمان وحاولوا اتخاذها محطة للحركة التحريرية وتعاونوا مع عبدالله بن الحسين في المرحلة الاولى ، ونشطوا في اعادة الحياة والحركة للفتاة وحزب الاستقلال على ما وعته الذاكرة ، نبيه العظمة وعادل

ارسلان وعوفي عبد الهادي وعزة دروزه وخير الدين الزركلي والشيخ كامل القصاب وحسن الحكيم وسامي السراج ويوسف ياسين ومحمد الشريفي واحمد مريود واحمد حلمي عبد الباقي وامين النسيبي وجميل المدفعي ورشيد طليع وعبد الستار السندروسي ومسلم العطار ومصطفى الغلاييني وغيرهم من امثالهم الذين لم تنعم الذاكرة .

ونسجل مع الاسف ان الامل باستمرار السير من هذه المحطة لم يلبث ان خاب ، حيث اخذ الامير يعتقد انه ليس من امل في نجاحه ، مدفوعاً الى عقيدته هذه بعدم الثقة في الشعب وامكانياته والشعور بالضعف والحاجة الى الغير ، وهي خصلة بدت ظاهرة في اثناء الثورة في ابيه ثم في اخيه فبصل على ما ذكرناه في المناسبات السابقة بالرغم عن ما كان من امكانيات كبيرة في المكان الجغرافي وفي السكان وفي الشعور الذي ظل متوفراً في مختلف انحاء سوريا تحتاج الى شيء من الجهد والدأب والتضحية ، واتجه امله إلى امكان الوصول الى نتيجة ايجابية في صدء استعادة العرش السوري عن طريق المناسبات الحسنة والمساعي الودية ، فاستدعى رضا الركابي واسند اليه رئاسة الحكومة ، واخذ يتجهم لرجال الحركة القومية او بالأحرى للاستقلايين ويرى في نشاطهم خطراً على امارته الجديدة وامله الطريف ، فأخذ الناس ينفذون من حول عمان واستمر التشاد بين الامير وبين الذين بقوا لبقاء املهم في الانتفاع بهذه المحطة بأي شكل كان امدأ غير قصير ، حتى ابلغهم وجوب الخروج من منطقة الامارة ، ولم يلبثوا أن تلقوا دعوة من الملك حسين فسافروا إلى مكة على مضض موقنين ان هذه الدعوة ليست الا تديباً مقصوداً لتخليص الامير من الحاحهم وخطر حركاتهم ، وأن تبدل موقفه منهم ومن فكرة السير الجدي التحريري التي كانت متجسماً لها في ما اذاعته من مناشير قوية عند وصوله معان ، واتجاهاته الطريفة ، إنما كان بنصيحة الانكليز الذين ارتبط مصيره بهم ، بما له صلة لا شك فيها بما كان من تفاهم بينهم وبين الافرنسيين كان من نتائجه إطلاق يد هؤلاء في سوريا وإطلاق يد أولئك في فلسطين وشرق الاردن .

ولقد كان فريق من رجال الحركة القومية والعهد الفيصلي أمّ مصر قبيل الانهيار والعهد وبعده واستأنفوا نشاطهم في سبيل تحرير سوريا ووحدتها ، وانضم اليهم بعض المنفضين من عمان . وقد بدأ نشاطهم بعد اشهر قليلة من الانهيار حيث ارسل كل

من حزب الاتحاد السوري ورئيس المؤتمر السوري السيد رشيد رضا وبعض اعضائه
وجماعة حزب الاستقلال احتجاجاتهم إلى جمعية الامم على ما جرى ويجري في سوريا.
ثم دعا حزب الاتحاد السوري الى عقد مؤتمر في جنيف لتوحيد جهود الاحزاب
والجماعات القومية السورية، وعقد المؤتمر فعلا في صيف عام ١٩٢١ وشهده مندوبون
عن حزبي الاستقلال والاتحاد السوري، وعن بعض الجمعيات العربية في المهجر كما
شهده مندوبون عن الوفد العربي الفلسطيني الذي كان إذ ذاك في انكلترة بسبيل
القضية الفلسطينية، ورأس المؤتمر ميشيل لطف الله رئيس حزب الاتحاد، وكانت
نائباه الحاج توفيق حماد من مندوبي وفد فلسطين والسيد رشيد رضا رئيس المؤتمر
السوري وسكرتيه العام شكيب ارسلان، رسمي المؤتمر السوري الفلسطيني،
واتخذ قرار المؤتمر السوري العام باستقلال سوريا الناجز بحدودها الطبيعية ورفض
الانتداب والصهيونية، واتفقوا له، وانبتق عنه لجنة تنفيذية تمثل الاحزاب والجماعات
التي اشتركت فيه كما انبتق عنه وفد لدى جمعية الامم مؤلف من شكيب ارسلان
واحسان الجابري ورياض الصلح لمتابعة النشاط، وارسل مذكرات مسهبة وقوية
في بيان حق العرب الشرعي في استقلال بلادهم ووحدتها والاحتجاج على ما كان
من نقض عهود العرب ومنافضة المبادئ، التي اعلنتها الحلفاء والبلاد العربية المحررة
وفرض الانتداب عليها برغم رغبات اهلها واحتلالها، وطالب بالجلاء عن جميع انحاء
سوريا وتمكين اهلها من ممارسة حقهم في الاستقلال والوحدة. وظلت اللجنة التنفيذية
التي اتخذت القاهرة مركزاً لها من ناحية والوفد من ناحية ثانية بنشاطات في مصر
واوروبا سنوات طويلة ويبرهنان على استمرار شعلة الفكرة العربية والحركة
العربية، ويتضامنان مع العاملين في هذا السبيل في داخل البلاد وخارجها.

- ٦ -

الثورة الكبرى ومضمارها واهدافها وادوارها

وفي صيف عام ١٩٢٥ انفجرت الثورة السورية الكبرى واستمرت الى صيف
عام ١٩٢٧، ومع انها بدأت في جبل الدروز ضد تصرفات حاكم الجبل الافرنسي

وكان لها مقدمات أثارت النفوس وهبأتهم سالها ، فانها كانت في سيرها واتساعها واهدافها مظهراً للاباء القومي ضد الاستعمار الافرنسي الذي كان يهدف الى اخماد الروح القومية وفرض السيطرة على البلاد وبث الفرقة بين اهليها وتوهين قواهم وكيانهم ، وامارة قوية على استمرار انتقاد الشعلة الوطنية والحركة العربية وجيشانها وبسبيل ميثاق الاستقلال التام والوحدة الطبيعية السورية الذي كان نتيجة من نتائج هذه الحركة والذي قرره المؤتمر السوري العام ، مما سجله قرار زعماء الدروز ومناشير سلطان الاطرش قائد الثورة العربية ، ثم مذكرة رجال الحركة القومية في مصر المقدمة للمندوب السامي جو فنييل الذي خلف سراي الذي انفجرت الثورة في عهده ، وما صدر بعد ذلك من مذكرات ومفاوضات ومناشير من زعماء الثورة ورجال الحركة ورفودها داخل البلاد وخارجها .

وكان من امر بدئها ان الحاكم الافرنسي العام في الجبل كاربيه اخذ يسير في سياسة شاذة من القسوة والارهاب ونشر جو الجاسوسية والرشايات ، ولم يتورع عن الضرب والصفع والاهانات المتنوعة للبارزين من ابناء الجبل زعماء وموظفين حتى بلغت تصرفاته حداً لا يطاق ، فأنذ الزعماء يرفعون اصواتهم بالشكوى والتذمر ، واتفوا لجنة وطنية برئاسة سلطان الاطرش وارسلوا وفداً الى سراي يطالبون بالحكم الوطني الذي كان الافرنسيون عاهدوهم عليه ، ويسردون ما يقاسونه من الحاكم الافرنسي ، فكانت مقابلة سراي للوفد ومطالمة فظة ، يهددهم بالنفي والتنكيل ، فزاد هذا من التذمر ، وازداد الافرنسيون شدة في قمع التذمر بالاعتقالات والغرامات والاعتداءات المتنوعة الاخرى لانهم رأوا في الحركة قضاء على السياسة التي ترسموها وساروا فيها خطوات غير بسيرة ، ثم احالوا على جلب جماعة من زعماء الجبل إلى دمشق بصفة وفد واعتقلوهم ونفروهم الى تدمر والحسبة واعتبروا رهينة على تخفيف الجبل غلواء شكاريه وتدميراته والجنوح الى خطة الخضوع والرضاء التي ساروا عليها من قبل ، ثم حاولوا ان يجتالوا على سلطان رئيس اللجنة الوطنية فأخفقوا ، وقام هذا بحملة تحميسية في قرى الجبل ، فبادر الافرنسيون الى قمع الحركة بالشدة ، وسيروا سرية بسبيل ذلك فقابل سلطات

ورجاله المبادرة بمثلها ، وكان من نتيجة ذلك إحراق دار البعثة الانتدابية في صلخد والقضاء على أكثر أفراد السرية . وكان هذا في أواخر شهر تموز ١٩٢٥ ، فقال الأمر الافرنسيين وأرسلوا حملة كبيرة قوامها ثلاثة آلاف فقابلها الدروز وكانت معركة كبرى عرفت بمعركة المزرعة دحـمرت فيها الحملة وقضي على نصفها واستولي على أثقالها وسلاحها وعنادها ومؤنها . وقد كان زعماء الدروز اتصلوا من قبل بزعماء حزب الشعب في دمشق وتعاقدوا على التضامن ؛ فلما قويت الحركة واشتدت جنح الافرنسيون الى الملاينة والمراوغة فذهب وفد من حزب الشعب الى الجبل لتوكيد التوائق وتحذير الدروز من الانخداع ، وتعاقدوا من جديد على عدم عقد صلح منفرد والاستمرار في الحركة الى أن يتحقق الميثاق القومي ، ووعدت دمشق بتهيئة القوى الثورية للاشتراك في العمل وتخفيف العبء عن الجبل ؛ وشعر الافرنسيون بالأمر فاعتقلوا فريقاً من أركان حزب الشعب منهم فوزي الغزي وفارس الحوري وإحسان الشريف وعبد المجيد الطباخ وتوفيق شامية وعثمان الشرباتي ونفوا بعضهم إلى إدواد وبعضهم الى الحسجة (١) . ونجا الباقي والتحق بالجبل ومنهم جميل مردم والدكتور شهنذر وحسن الحكيم وسعيد حيدر ونسيب البكري . وهنا تقررت الخطوات الحاسمة فوسدوا قيادة الثورة العامة لسلطان الأطرش والتفوا حوله يسندونه ويعاونونه ؛ وصدر أول منشور يحمل لقب القائد العام للثورة السورية الكبرى بتاريخ ٢٣ آب ١٩٢٥ يدعو فيه السوريين إلى السلاح والجهاد في سبيل ميثاقهم القومي وكرامتهم وعزتهم الوطنية ، وأخذت الثورة تشتد وتتسع فكانت المعارك المهمة التي عرفت بمعارك المسيفرة والسويداء وعري ورساس في حوران واستبسل بنو معروف وكبدوا الافرنسيين الخسائر الجسيمة رغم توالي النجـدات وعدم تكافؤ المعدات . ثم تعدت الثورة الجبل الى حماه حيث ثار مجاهدوها بقيادة فوزي القاوقجي الذي كان ضابطاً في الجيش الحلي بإقليم البلاتـ وادي التيم ؛ وكانت دمشق مسرحاً من مسارحها حتى لقد جاء وقت كانت أحيائها ومخافرها الداخلية تحت سيطرة المجاهدين التامة ، وحتى كاد مجاهدوها يعتقلون سراي فيها . وقد جن جنون الافرنسيين فسلطوا فصائلهم وفصائل السنغاليين ومنطـوعة

(١) الحسجة مركز في شمال سوريا وفي باديتها ويبعد عن دمشق نحو (٧٥٠) كيلو مترا . أما إدواد فجزيرة صغيرة قريبة من الساحل السوري .

الشراكسة ليعملوا النهب والتحريق والتدمير وقتل الناس بدران تفريق بين الثوار وغير الثوار وتشهير المقتولين وجرح جرحهم في الأزقة في دمشق ، وقصفوها وقصفوا حياة أيضاً وأوقعوا فيها دماراً واسعاً كما قاموا بحملة تحريق وتدمير على كثير من قرى غوطة دمشق وحماه والجبل . ولكن كل هذا لم يكن ليزيد النار إلا شدة وضراماً . ومثل أبطال الجبل ودمشق وحماه والغوطة والبلان ووادي التيم أدواراً رائعة من الجرأة وقوة الشكينة والتصميم ؛ وراح منهم عدد كبير ضحايا غالبية ؛ وعمت الثورة مختلف الطبقات ، وعلى مختلف الوجوه من مقاتلين ومعاونين ومؤازرين ومخبرين وممولين وممومين ؛ وقد نشط رجال الأحزاب والحركة القومية الذين كانوا خارج البلاد فاشترك بعضهم في الثورة وقيادتها كما فعل ذلك بعض من بقي في البلاد ، وقام باقيهم بجهود ضخمة في جمع التبرعات وتنظيم الحملات وتزويد الجبهات بالسلاح والعناد والمؤن والكساوي وبث الدعايات في مختلف الأوساط الشرقية والغربية والأوروبية والأميركية .

ولقد عمد الافرنسيون إلى بث الخوف في نصاري جبل عامل وراشيا وحاصبيا ونسليهم وتحريضهم ومدّهم بعصابات من المواردنة ودفعهم جميعاً إلى القتال في جانبهم كما أخذوا يجمعون السلاح من مسلمي لبنان سنيهم وشيعيهم ودروزهم بقصد إرهابهم وإرهاب الثوار معاً في جعلهم تحت رحمة الذين سلحتهم من النصاري وخاصة من المواردنة ، وحذراً من امتداد نار الثورة وسريانها فيهم في آن واحد . وقد فطن زعماء الثورة إلى هذا المكر اللئيم فأذاعوا المنشورات المنبهة لسوء نوايا الافرنسيين والمطمئنة للنصاري والمتضمنة تأكيد سمو أهداف الثورة ونوايا القائمين بها . ومع ذلك فلم تذهب هذه الحركة سدى حيث وقعت بعض الحوادث المؤسفة بين النصاري والثوار في مناطق راشيا وحاصبيا وجبل عامل بما تعمد الافرنسيون بسبيل تحقيق خططهم في التفرقة وإثارة الخوف والعداء بين طوائف البلاد وطبقاتها .

جوفنيل وبرهلو انبأته

على أن فجائع الثورة وأخبارها أثارت قلق فرنسا واضطرتها بعد انفجارها بثلاثة أشهر إلى سحب سراي وتعيين جوفنيل مكانه ، وهو سياسي محنك أتمل

الافرنسيون فيه القدرة على تهدئة الأمور . وكان هذا أول مفوض سياسي حيث كان أسلافه من العسكريين .

واقدر كان سراي يتهم الانكليز بتعصيد الثورة ، ويرى من أدلة ذلك اتخاذ الثوار فلسطين وشرق الاردن مراحاً ومنتجعاً ومصحاً . وقد كان رجال الحركة القومية الذين تولوا تنظيم شئون الثورة وتمويلها وتموينها من الخارج يقبضون وينشطون في البلدين بحرية نسبية ؛ فرأى جوفنيل أن يزور لندن للتفاهم على ما ينبغي من تدابير في هذا الصدد . ويظهر أنه كان للانكليز مطالب متصلة بالحدود السورية الفلسطينية والعراقية فتم التفاهم في هذه الزيارة على تحديد جديد يرضي الانكليز ويضمن عونهم المطلوب . ثم قدم جوفنيل الى القاهرة وأخذ يتصل برجال اللجنة التنفيذية المؤتمر السوري الفلسطيني ؛ وقد جنح في بدء الاتصال إلى التوافق مع ميشال لطف الله على تحديد العلاقات بين سوريا وفرنسا بمعاهدة تتضمن الاعتراف باستقلال سوريا وقيام حكم وطني دستوري وإصدار عفو عام ؛ ثم عقد رجال الحركة والأحزاب اجتماعاً تدارسوا فيه الموقف وتقدموا بمذكرة مفصلة ضمنوها أهداف الحركة ومطالبها وكانت مصوغة بقلب قوي اتخذته جوفنيل وسيلة للاحتجاج والتوقف عن المفاوضات ، وغادر القاهرة إلى سوريا حيث أخذ يطلب إلقاء السلاح قبل الدخول في أي مفاوضة ، والاعتماد على العدالة الافرنسية بكلمات طنانة مبهمه . والحق إن جوفنيل حاول أن يلعب دوراً بهلوانياً بثورته وتصريحاته ووعدده ووعيده ، ولكنه لم يكشف عن أية رغبة صادقة عنده أو عند حكومته في الاستجابة لصوت الحق ؛ وظهر أن ما كان منه إنما كان مراوغة وتخديراً وكسباً للوقت إلى أن تصل الحملات الكبرى التي أزمعت فرنسا على إرسالها للقضاء على الحركة والاستمرار في ما رسمته من منهج باغ ، وفرض الحلول الهزيلة الخداعة .

على أن زعماء الثورة ورجال الحركة لم ينخدعوا فظفروا من ناحيتهم بصروت على تأليف حكومة يرضون عنها ، وإعلان العفو والموافقة على معاهدة تتضمن الاعتراف بالاستقلال والوحدة والحكم الدستوري النيابي قبل إلقاء السلاح .

بخط الامم ورومها

ولقد كانت تشاد قوي بين الروح الوطنية والخذاع الافرنسي سجل فيه نصر عظيم للروح الوطنية بالرغم عن ما كان خلاله من بعض العثرات والصور الباهتة . فقد حاول جوفنيل أن يوجد ثغرات في الصفوف فأمر السلطات باختيار وفد من وجهاء دمشق ليقدموا مطالب البلد ، وانتخب الوفد باشراف الافرنسيين في آذار سنة ١٩٢٦ ولكن المطالب التي قدمها لم تختلف في جوهرها عن المطالب القومية حيث تضمنت دعوة جمعية تأسيسية تتولى وضع دستور على أساس السيادة القومية ، وعقد معاهدة تحل محل الانتداب يعترف فيها لفرنسا بالنفوذ السياسي والرجحان الاقتصادي على شرط عدم اخلالها بالسيادة ، وإنشاء جيش وطني لتسهيل الجلاء عن البلاد ، ودخول سوريا في جمعية الامم ، وتوحيد جبلي الدروز واللاذقية مع سوريا ، وإعادة الاقاليم السورية المنضمة إلى لبنان ، وقيام حكومة وطنية موقته تمهد لقيام حكومة دائمة على أساس الدستور الجديد ، وإعلان العفو العام ، والتعويض على منكوبي الثورة .

وقدم صبيحي بوكات رئيس الحكومة استقالته ناصحاً بإجابة مطالب البلاد لتهدئة الحالة ، فدعا جوفنيل الشيخ تاج الدين الحسيني لاستلام منصبه فاشتروط هذا الموافقة على مطالب البلاد كمنهج لحكومته ، وقدم لائحة بهذه المطالب بمائة لائحة وفد الشام ، وكان كل هذا نتيجة لقوة تلك الروح وأثر جو الثورة . وقد أخذت جوفنيل العزة بالاثم وتكشفت نياته الاستعمارية على سجيبتها إزاء هذا التصميم على عدم الانخداع فعين إفرنسياً لرئاسة الحكومة . ولقد حاول أن يفرق بين السوريين والدروز فاخذ حاكم الجبل الافرنسي بناء على توجيهاته يذيع اذاعات يغمز فيها زعماء الثورة من الدروز لاهمالهم إستقلال الجبل واستغراقهم في الدعوة الى استقلال سوريا ودمج الجبل فيها ، ويمجد الدروز ويحرضهم ويخوفهم ويطعمهم ؛ ولكن هذه المحاولات باءت بالافخاق كذلك .

وبما جرى أن جوفنيل أرسل الامير أمين أرسلان إلى الجبل بكتاب وجه

الخطاب فيه للشعب الدرزي وطلب فيه آرامهم في الموقف ، فمقد وجهاء الجبل وذوو الشأن فيه اجتماعاً كبيراً في دامه بتاريخ ٢٨ شباط ١٩٢٦ تداولوا فيه الامر ووقعوا على كتاب جوابي طالبوا فيه الاعتراف باستقلال سوريا التام ووحدها وإنشاء جيش وطني يهدد للجلالة الافرنسي . وتأليف مجلس تأسيسي يضع دستوراً لسوريا تنبثق عنه حكومة سورية وطنية ، وإصدار عفوه عام ؛ مما أثار حنق جوفنيل وخيبته وحمله على إرسال جواب قال فيه ان الكتاب يجعل كل مفاوضة مباشرة وغير مباشرة مع العصاة مستحيلة وإنه لن يقبل بعد الآن سوى الخضوع بدون قيد وشرط .

وعمد جوفنيل إلى حيلة أخرى فدعا إلى انتخابات عامة في مناطق حلب وحماه وحمص بقصد التعرف إلى آراء ممثليها وبث روح التفرة بينها وبين دمشق وحموران اللتين استثنينا من الانتخاب ؛ ففطن اهل تلك المناطق للحيلة فأظهروا عزيمتهم على مقاطعة الانتخابات ، وظلوا صامدين بالرغم من التهديد والوعيد والترهيب والتغيب . وبالرغم مما كان من اعتقال الوطنيين البارزين فيها ونفيهم ، ولقد استطاعت السلطات أن تحمل بعض العناصر الموالية لها في حلب على الاشتراك في الانتخابات فأعلنت المدينة الاضراب وقامت المظاهرات وارتفع اصوات الاحتجاج والاستنكار ، وكانت اشتباكات راح فيها عدد غير يسير من ابنائها شهداء وجرحى وحوكم بسببها بعض الوطنيين والشباب . ومع ذلك كله فإن المنتخبين هذا الانتخاب المزيف المغسوس بالدم على علائهم حينما دعوا إلى الاجتماع وتقديم المطالب لم يسعهم تحت تأثير الجر القومي الشديد الا أن يقدموا مطالب متسقة مع المطالب القومية بما أثار حنق جوفنيل ودفعه الى الغاء مجلسهم ! ولقد مرت هذه الروح القوية إلى المنطقة الغربية الساحلية بمناسبة إعلان العزم على منعها دستوراً نكابة بسوريا فقامت حركة واسعة للمطالبة بالانفصال عن لبنان والانضمام الى سوريا في صيدا وصور وجبل عامل وطرابلس الشام وبعلمك وراشيا وحاصبيا والبقاع ومن قبل مسلمي مدينة بيروت أيضاً، وعمد جوفنيل إلى حيلة جديدة حيث دفع الشريف عبد المجيد حيدر (١) إلى الحركة بحجة الرغبة في إقامة عرش سوري يتوسده (١) هو ابن الشريف حيدر الذي عينه الاتعادون اميراً على مكة بدلاً من الحسين حينما أعلن هذا نوره . وقد اقام جل أيام الحرب في بيروت ولبنان .

وتتحقق مطالب البلاد على يده إذا هدأت الثورة ؛ ولكن الحيلة أخفقت كذلك لفقدان طابع الاخلاص والصدق عليها .

استناد المصالح على الثوار وأثره

وفي أثناء ذلك أخذت النجيدات المنتظرة تتوارد من فرنسا فاعتنم جوفنيل الفرصة فاتصل بالداماد أحمد نامي التركي الاصل (١) وفأوضه على تأليف الوزارة ، واتصل هذا برجال الحركة الوطنية فخطبوا على التعاون معه إذا وافق المندوب السامي على منهج وطني للوزارة . وقد كان هذا المنهج مستمداً من لائحة الشام ؛ وإزاء هذا الغناد القومي الذي لم يكن في أثناء اشتداد الثورة وخفوتها وبالرغم عن متنوع الاساليب والمحاولات التي عمد اليها رأى جوفنيل نفسه مضطراً إلى المسيرة إنقاذاً لسمعته كسياسي معهود كانت باريس تعول عليه في تهدئة الحال وتمشية الأمور فتبادل مع أحمد نامي الرسائل حول المنهج والموافقة عليه وتألفت الوزارة في شهر مايس واشترك فيها من الوطنيين لطفي الحفار وفارس الخوري وحسني البوازي . ولكن الروح الاستعمارية الغادرة لم تغير خطتها فمع ان الوزارة تألفت على أساس منهج معين متفق عليه تناول في م - ا تناوله توحيد جبل الدروز واللاذقية واستعادة الاقاليم المضمومة الى لبنان وتسكين الاضطرابات والنفوس النائرة بالتسامح والملاينة فإن جوفنيل ومعاونيه من جهة وقواد القوي العسكرية من جهة اخرى لم يلبثوا أن تجاهلوا هذا ؛ وأن أخذوا يسيرون في خطة معاكسة بالنسبة للمسائل الأولى ، وان تذرعت السلطات العسكرية بأسباب تافهة فقصفت الميدان والمدافع ودمرت فيه نحو الف منزل ، وأباحث بمقياس واسع ، وأخذت تضيق الحناق على مراكز الثورة الرئيسية ، وتعيد تمثيل أدوار التنكيل والتعريق والتدمير والغرامات . وعمدت السلطات الفرنسية الى الاستعانة على هذه المقاصد بالمنطوعة الشركسية والأرمنية والاسماعيلية والنصيرية والمارونية والدرزية من كتائب الجيش المحلي والتي أعدت خاصة لمثل هذه المواقف على ما قلناه قبل . وكان ينطوي في هذا التدبير اللئيم بنوع خاص نية إضرار نار الحقد والبغضاء والفتنة بين

(١) الداماد لقب كان يطلق على من له صلة مصاهرة بالاسرة العثمانية ومعنى الكلمة « صهر »

سكان البلاد وجعل هذه العناصر والطوائف تستمسك بالفرنسيين وتخاص في خدمة أغراضهم خوفاً من أهل البلاد وطمعاً بالخطوة .

ولقد كان لكل ذلك أثر ما في تخفيف حركة الثورة بالرغم مما أبداه المجاهدون من بسالة وإقدام وبطولة في مختلف الجبهات . واغتم جوفنيل الفرصة فأباح لمنطوعة الشر كس والأرمن هذا الحي فعاثت فيه تحريقاً ونهباً وفتكاً وهتكاً ، ووسعت نطاق قمعها حيث تناول قرى الغوطة بالتحريق والتدمير والنهب وتقتيل الأبرياء الذين لا علاقة لهم بأعمال الثورة والتمثيل بمن ظفروا به من رجال الثورة تمثيلاً لثما . . مما أحدث رد فعل شديد في الشعب ، وحمل الوزراء الوطنيين الثلاثة على المطالبة بالكف عن سياسة القمع والسير في نطاق المنهج المتفق عليه بالنسبة للوحدة والأقاليم المضمومة إلى لبنان ، ويظهر أن زملاءهم في الوزارة لم يتضامنوا معهم في الموقف فطلبوا من الرئيس تعديل وزارته وجعلها متجانسة ومخلصة للمنهج المتفق عليه ، فلم يلبثوا أن فوجئوا باستقالة الوزارة وإعادة تأليفها بدونهم ، وباعتقالهم مع سعد الله الجابري وفوزي الغزي وأديب الصفدي وبدر الدين الصفدي ونفيهم إلى الحسبة ثم إلى أميون لبنان حيث بقوا كذلك شهوراً عديدة ولم ترد إليهم حريتهم إلا بعد انسحاب جوفنيل بدة طويلة .

- ٩ -

وفي أواسط عام ١٩٢٦ انسحب جوفنيل من سوريا نتيجة للضجة التي ثارت حول كوارث التدمير والطغيان في القمع والاختفاف في مراوغاته وحيله وإيجاد فئة تتعاون معه على ما أراد من حلول هزيلة . وقد ظلت الثورة مشتعلة بعده مدة أخرى ، غير أن الحملات القوية الجديدة أخذت تنجح في ضغطها وتطويقاتها واستطاعت أن تضطر المجاهدين إلى الانسحاب خطوات بعد خطوات من جبهات القتال في الغوطة ثم في الجبل ، ولا سيما أن التعب أخذ يذب فيهم ، والعتاد والمال والوسائل الضرورية تشح بين أيديهم حتى إذا كان صيف عام ١٩٢٧ كانت بقية السيوف وخاصة بني معروف قد نزحت إلى شرق الأردن . وهنا كثر الانكليز عن ناهم لهم ، حيث كانوا نالوا ما يريدونه من فرنسا من تعديلات حدودية ، فاضطروا إلى الالتجاء إلى قرى الملح في أراضي المملكة السعودية بعد أن نال

بعض رجال الحركة الاذن لهم بذلك من الملك عبد. العزيز ، وأقاموا فيها بضعة سنوات متجاذبين صابرين على الشظف والحرمان بعد نضال رائع وبطولة فائقة امتد امدهما سنتين طويلتين ، هذا مع التنبيه على أنهم ظلوا على صلة بالحركة الوطنية في خطوات الحلول النصفية التي حاولت أن تفرضها فرنسا ، وكانت لصلتهم تأثير توجيبي قوي في مختلف أدوار هذه الخطوات .

امرات مؤسسه في صفوف العاملين في الثورة وأثرها

ونقول مع الاسف إن رجال الحركة الذين اشتركوا في الثورة وتنظيمها وتمويلها وتموينها لم يبقوا اثناءها متمسكين متضامين ؛ فقد وقع بينهم انشقاق في صدد ادارة الثورة وتمويلها وتموينها ، وسرى ذلك إلى صفوف المجاهدين وقادتهم مما نتج عنه بعض صور ووقائع محزنة ، وكان ذلك من عوامل ما طرأ على حركة الثورة من فتور وضعف ، وما كتب لحركات القمع الشديدة من نجاح ؛ وقد كان هذا الانشقاق شبه امتداد لما كان من حركات انشقاقية وتشاد وتجادب بين رجال العهد الفيضي ، حيث كان المتشادون المتشاقون . يمثلون الفئتين المتشادتين المتشاققتين في ذلك العهد أو يمتون اليهما .

اثر الثورة في الروح الوطنية

على ان ذلك الجهاد الأبي القوي والضحايا العزيزة ، والعزيمة القوية لم تكن لتذهب سدى . فقد كان ذلك كله دلائل قوية وهاجة النور على قوة الروح القومية في الشعب السوري وتقديره قيمة الحرية والكرامة والاستقلال ، وإبائه الضيم والحسف والخضوع الذي أراد المستعمر الغشوم فرضه عليه ، واقدامه على التضحيات الباهظة في سبيلها اذا تزعم حركاته زعماء وضعوا نصب اعينهم التضحية والاقدام واسعت الوسائل والظروف ؛ كما كان له صدى قوي في الاوساط السياسية العالمية ، وكان مادة فباضة للاحتجاجات والدعاية التي قام بها رجال الحركة في الخارج ومدداً لا ينضب استمدت منه الحركة الوطنية في الداخل في الادوار التالية لها قوة وعزيمة وروحاً . وليس من ريب في انه كان ذا اثر بليغ في فرنسا نفسها ، وأنه

برهن لها على حيوية الشعب العربي وإبانه واستمرار انتقاد الشعلة القومية بل وازديادها انتقاداً، وعلى استحالة قتل الروح القومية الاستقلالية فيه مهما استطاعت كبح جماحها بالقوة العاشمة المتفوقة ؛ ومحاولاتها بسبيل إيجاد حلول نصفية بعد انفجار الثورة تمت بصلة ما إلى المطالب الوطنية إنما كانت نتيجة لذلك الاثر . ولكن الروح الاستعمارية الباغية التي أملت عليها الغدر والتسكّر لمبادئ الحق والحرية والوفاء منذ الأصل والتي كانت تتغلف أحياناً بالاعتبارات العاطفية وأخرى بالتقاليد والمصالح كانت طاغية على رجالها ، فكان ذلك عاملاً في استمرار البلاء على سوريا واستمرار المزاوغات والمخاتلات والغدر في المدة الطويلة التي تلتها .

- ٩ -

بونو ومكره

وجاء بونو في أواخر عام ١٩٢٦ خلفاً لجوفنيل ، وكانت الحملات العسكرية ضد الثورة في طريق النجاح . وقد أعلن فيما أعلن أنه آت لانقاص الحطة التي اعتزمها سلفه والتي وافقت عليها الحكومة الافرنسية وجمعية الامم والمستمدة من ميثاق هذه الجمعية ؛ وهي تمهيد السبيل لنمو سوريا ولبنان نمواً تدريجياً كدول مستقلة وتنشيط الاستقلال الداخلي على قدر ما تسمح به الظروف والاستمرار في القيام بواجبات الانتداب المعهودة إلى فرنسا ! وان كل هذا يجب ان يتضمنه الدستور المقبل ؛ غير أنه لا يمكن ان يتم طفرة او ان يكون من شأنه نخلي فرنسا عن مهمة ضمان الأمن والسكينة والارشاد . وهكذا دشن عهده ببشرى سيادة الروح الاستعمارية واستمرارها مع محاولة لفها ببرقع زائف .

ولقد اقام هذا المفوض في منصبه نحو سبع سنين أي مدة تعدل مدة جميع من سبقه ، وقضت البلاد في عهده دوراً عجيباً آخر من المزاوغات والمخاتلات والمحاولات بسبيل الحلول الهزيلة . وكان هذا الرجل على عكس جوفنيل سكوتاً بارع المزاوغة في صور الدس والاختبار والمشاورة وعدم الاهتمام للوقت ؛ حيث كان يمر الأشهر الطويلة بين خطوة بخطوة ومرحلة ومرحلة مع أن الخطوات والمراحل كانت تقتضي التلاحق . وكان هذا متعمداً من دون ريب للتخدير وإيجاد الثغرات وصرف الافكار

إلى انتظار نتائج الخطوات والمراحل بشيء من الأمل والسكوت .

ولقد قضى نحو ثمانية عشر شهراً منذ قدومه بحجة الدرس والاختبار والمشاورة مع باريس ؛ ثم خطا خطوته إلى دعوة جمعية تأسيسية تضع دستوراً لسوريا وينتق عنها حكومة ممثلة للشعب تسير مع فرنسا في طريق الحل الملائم للقضية ، وقد أصدر نصريحاً وعد فيه بحرية الانتخابات ، وقيد الدستور المطلوب وضعه مع ذلك بنطاق مهمة فرنسا الانتدابية المستندة إلى صك الانتداب ، وأصدر عفواً استثنى فيه عدداً كبيراً من زعماء الثورة ورجال الحركة القومية . وهكذا كانت خطوته الأولى في سبيل حل قضية سوريا متعثرة بالروح الاستعمارية وكانت خطواته التالية كذلك طيلة عهده ؛ مع ما كان في خطوته من تظاهر بالرغبة في مسايرة المطالب الوطنية على النحو الذي كان رجال الحركة والجهاد يصرون عليه بما يصح أن يسجل أنه اثر من آثار الثورة والحركة .

الكتلة الوطنية

وفي اثناء هذه الحقبة نشأت الكتلة الوطنية على انقاض حزب الشعب الذي غادر عدد من أعضائه البلاد منذ انفجار الثورة ولم يعد بنشط خلاها . وقد انضم إلى أعضائه الذين بقوا في البلاد فريق آخر من المتسقين معهم في المبادئ الوطنية . فقدت هذه التشكيلة تمثل الحركة القومية في سوريا وتقودها وظلت كذلك إلى الحرب العالمية الثانية ، وكان ينضم إليها من آن لآخر من يتيسر له العودة من رجال الحركة أو من ترى في انضمامه فائدة من رجال البلاد الآخرين .

وبمناسبة تصريح بونسو ودعوته إلى جمعية تأسيسية عقدت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني في القاهرة اجتماعاً ضم جمهرة الرجال الوطنيين الذين ظلوا خارج البلاد وتقرر فيه اذاعة بيان بوجوب تضمين الدستور وحدة سوريا الطبيعية وسلطانها القومي بدون شائبة ؛ وأذاع سلطان الاطرش بياناً مثل هذا وموجباً أن يكون جبل الدروز ضمن الوحدة السورية ، وعقد أنصار الوحدة في مناطق لبنان واللاذقية مؤتمراً في دمشق قرروا فيه تأكيد الميثاق القومي والمطالبة بالنص على الوحدة

السورية التي تضم جبل الدروز ومنطقة اللاذقية والاقضية الاربعة وجبل عامل وسائر المناطق التي ضمت إلى لبنان وصار بها كبيراً ولم تكن منه قبل ذلك . وقد كان غورو أعلن بتاريخ ٣١ آب سنة ١٩٢١ ضم جبل عامل وصيدا وصور وطرابلس الشام وحصن الأكراد وبيروت وراشيا وحاصبيا والبقاع وبعبك إلى لبنان القديم وممما لبنان الكبير ضارباً بعواطف ورغبات أهل هذه البلاد التي لم تكن داخلة فيه عرض الحائط ؛ وكانت الاقضية الاربعة تابعة لولاية سوريا وجبل عامل وصيدا وصور وطرابلس والحصن وبيروت تابعة لولاية بيروت التي كانت تضم كذلك لوائي عكا ونابلس في فلسطين ؛ واكثرية البلاد المنضمة مسلمة .

وقد كانت الوفود المشتركة في هذا المؤتمر من الطبقة الوطنية المحترمة في مناطقها والمعبرة عن رأي أهلها تعبيراً صادقاً . وقد كان لهذه الحركات والبيانات اثر قوي في شد أزر الكتلة الوطنية وتشيينها كما كانت إعلاناً جديداً عن تغلغل فكرة الوحدة القومية في مختلف المناطق الشامية ، وعن تدمير الذين ضموا إلى لبنان بالرغم عنهم .

- ١٠ -

الجمعية التأسيسية والدستور

وفي ٢٤ نيسان سنة ١٩٢٨ جرت انتخابات الجمعية التأسيسية واشتركت الكتلة الوطنية فيها بالرغم عما كان من تقييد بونسو الدستور بنطاق الانتداب ونحوض وعوده ومقاصده ، وأذاعت بياناً أكدت فيه حرصها على تحقيق الأهداف القومية في هذه الخطوة ، فحالف مرشحيها النجاح بمقياس متناسب مع الروح الوطنية التي كانت سائدة بقوة الثورة ونضجيات البلاد وبطولة المجاهدين بما لم يكن يتوقعه الافرنسيون وجعلهم يحسبون له الحساب . وسارت الجمعية في عملها إلى ان تم وضع دستور احتوى فعلاً مطالب البلاد كالنص على السيادة والوحدة وعدم اعتبار ما كان من تجزئة ، وحقوق رئيس الجمهورية بصفته ممثل السيادة القومية ، وحقوق المجلس النيابي ومسؤولية الوزارة أمامه والتمثيل الخارجي والجيش الخ .

وقد كانت المواد التي تنص على ذلك والتي عرفت بالمواد الست موضوع تشاد

بين الجمعية وبنسو (١) ؛ لأن هذا اعتبرها متعارضة مع مهمة الانتداب وغاياته وطالب بحذفها . وأبت الجمعية ذلك بقوة وتأثير النواب الوطنيين لأن الدستور بدونها يقدو نافهاً والدولة تكون محرومة من سيادتها واستقلالها . وجرت الاتصالات والمراجعات بسبيل التوفيق ؛ ولقد سارت الجمعية في هذا الطريق شوطاً غير يسير حتى أثر عن ابراهيم هنانو زعيم الكتلة الوطنية قوله « لقد تساهلنا إلى ان كدنا نقع في الحيانة » حيث اقترحت من جملة ما اقترحته للخروج من المأزق هذه التعديلات :

أولاً ان أحكام المواد ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ١١٠ و ١١٢ تنفذ باتفاقات خاصة بين الحكومتين السورية والافرنسية ريثما تعقد المعاهدة لتحديد العلاقات بين الدولتين .

ثانياً تعدل المادة الثانية من الدستور على الوجه الآتي : البلاد السورية وحدة سياسية لا تتجزأ وحقوق الاعتراض على التجزئة مضمونة .

غير ان الروح الاستعمارية أبت ان تتساهل لأنها رأت في التساهل انهزاماً وتخلياً عن مطامعها ، فأجل بنسو الجمعية الى أجل غير مسمى ورفض ما قدم له من حلول تساهلية ولم يعاب بما كان من احتجاج الجمعية التأسيسية والهيئات الوطنية واستيائها ، ولم يخجل من ترديد نغمة سوء النية وعدم الثقة والرغبة في الشغب التي

(١) هذه نصوص المواد المذكورة :

المادة (٢) ان البلاد السورية المنفصلة عن السلطنة العثمانية ذات وحدة سياسية لا تتجزأ ولا عبرة لكل تجزئة طرأت بعد الحرب العامة حتى اليوم .

المادة (٧٣) لرئيس الجمهورية حق العفو العام . أما العفو الخاص فلا يمنح الا بقانون .

المادة (٧٤) يتولى رئيس الجمهورية عقد المعاهدات الدولية وبراها . اما المعاهدات التي تنطوي على شروط تتعلق بسلامة البلاد أو بحالية الدولة ، والمعاهدات التجارية وسائر المعاهدات التي لا يجوز فسخها سنة فسخة فلا تعد نافذة الا بعد موافقة المجلس عليها .

المادة (٧٥) يختار رئيس الجمهورية رئيس الوزراء ويعين الوزراء بناء على اقتراح رئيسهم ويقبل استقالتهم ويولي الممثلين الأجانب السياسيين ويقبل الممثلين ويعين الموظفين والفضة ويرأس الحفلات الرسمية ضمن حدود القانون .

المادة (١١٠) تنظيم الجيش الذي سينشأ يكون بقانون خاص .

المادة (١١٢) رئيس الجمهورية يعلن بناء على اقتراح مجلس الوزراء الأحكام العرفية في الاماكن التي تحدث فيها اضطرابات او فوضى . ويجب ان يعرض اعلان الاحكام العرفية المذكورة على المجلس النيابي فوراً . فاذا كان المجلس غير منعقد دعاه للاجتماع بوجه السرعة .

كانت الافرنسيون يرددونها إزاء المواقف الوطنية . ثم اذاع بعد سنة بقرار منه دستور الجمعية التأسيسية بعد إدخال كثير من التعديلات عليه ، ووضع مادة اضافية اخيرة وهي المادة (١١٦) التي تعطل استعمال رئيس الجمهورية وحكومته بعض الحقوق والصلاحيات التي ذكرت في المواد الست الآتية الذكر حيث عدلت المواد ٢ و ٥ و ٨ و ١٤ و ١٧ و ٢٤ و ٤١ و ٦٨ و ٧٥ و ١٠٧ و ١٠٨ و ١١٥ و ألغيت المادة ٦٠ ؛ والتعديلات متصلة بالوحدة والجيش والحرية الشخصية وحرية الصحافة واللغة العربية والانتخابات وصلاحيات رئيس الجمهورية ومدته ، ومثلة للروح الاستعمارية المتحكمة في الافرنسيين ، ومحقة لرغبة التدخل وشل معنى السيادة . اما المادة (١١٦) المضافة فهذا نصها :

« ما من حكم من احكام هذا الدستور يعارض ولا يجوز ان يعارض التعهدات التي قطعتها فرنسا على نفسها فيما يختص بسوريا لا سيما ما كان منها متعلقاً بجمعية الامم . ويطبق هذا التحفظ بنوع خاص على المواد المتعلقة بالمحافظة على الامن والدفاع عن البلاد وبالمواد التي لها شأن بالعلاقات الخارجية ولا تطبق احكام هذا الدستور التي من شأنها ان تمس بتعهدات فرنسا الدولية فيما يختص بسوريا اثناء مدة التعهدات إلا ضمن الشروط التي تحدد باتفاق يعقد بين الحكومتين الافرنسية والسورية . وعليه إن القوانين المنصوص عليها في مواد الدستور والتي قد يكون لتطبيقها علاقة بهذه التبعات لا يناقش فيها ولا تنشر وفقاً لهذا الدستور إلا تنفيذاً لهذا القرار ، وإن القرارات ذات الصفة التشريعية او التنظيمية التي اتخذها ممثلو الحكومة الافرنسية لا يجوز تعديلها إلا بعد الاتفاق بين الدولتين . »

وقد أثارت هذه التعديلات والتحفظات العجيبة التي مسخت الدستور والاستقلال والسيادة وحرية مجلس النواب والحكومة ورئيس الجمهورية الهياج وقامت المظاهرات الاحتجاجية ، وأضرب الناس في دمشق وغيرها ، وأعلنت الكتلة الوطنية أنها لن تنقيد بها وأنها لن تراجع عن اعتبار دستور الجمعية هو القائم الواجب احترامه وتطبيقه . ودعا سلطان الأطرش الى مؤتمر يعقد في مريض المجاهدين في الصحراء فاستجاب اليه فريق كبير من رجال الحركة الوطنية ، وقرر المؤتمر تجديد العهد على إنقاذ سوريا وتحقيق مطالبها وحقوقها كاملة .

وبما جرى أن بونسو أقدم على حركة أثبتت إصرار فرنسا على النهج الاستعماري الخاص بجبل الدروز ومنطقة اللاذقية مما أشرنا إليه في مناسبة سابقة ؛ حيث أصدر مع دستور سوريا ثلاثة دساتير أخرى واحداً لجبل الدروز وثانياً لمنطقة اللاذقية وثالثاً لمنطقة الاسكندرونة تنص على استقلال هذه المناطق مالياً وإدارياً ، وحصر دستور سوريا المسموح في مناطق دمشق وحوران وحلب وحماه وحمص .

- ١١ -

الجمهورية السورية الاولى في ظل الانتداب

وحبر سنتين طويلتين ثم أعلن في أوائل ايلول من عام ١٩٣٢ موعداً لانتخاب المجلس النيابي الذي ينص عليه دستوره . وقد حصل قبيل هذا الاعلان من زعماء الدروز والعلاويين الأنصار المندمجين في السياسة الافرنسية والذين كانوا يتحكمون بتعزيد فرنسا في رقاب شعبيهم على مضابط ببقاء الانتداب الافرنسي والرغبة في الانفصال والكبان الخاص مقدمة لما يراود أن تكون عليه المعاهدة المزمع عرضها على سوريا . ولم يكتف بهذا بل حصل على مضابط من المسيحيين الأنصار بطلب بقاء الانتداب والرغبة في الحماية الافرنسية والنص على ذلك في المعاهدة !

وجرت الانتخابات فنقضت السلطات الافرنسية ما بيته وتدخلت تدخلاً فظيماً في الانتخابات لضمان فوز مرشحيها ، وكان لعمالها وضباط استخباراتها خاصة دور كبير في هذا الباب حيث أمكنهم نشر جو كثيب من الارهاب ، وأصلت السيف على رؤوس زعماء الوطنيين وصحفهم واجتماعاتهم ، وشجع الأنصار والمأجورون على نشر المناشير ضدّهم وإلصاق تهمة التآمر على الوطن والمآرب الذاتية والهوس بهم ، ولقد أدى تدخل السلطات السافر في الانتخابات لصالح مواليسها ضد الوطنيين إلى مظاهرات وهياج وتحطيم صناديق الانتخاب في أماكن كثيرة ووقوع اشتباكات بين الجيش والشعب وجرح عدد من الأهالي واعتقال عدد كبير من الشباب في دمشق وحلب وحماه . وكانت نتيجة الانتخابات فوزاً ساحقاً لمرشحي السلطات بحيث بلغ عددهم ٥١ من ٦٩ ؛ وقد قدمت الطعون الموثقة بالوثائق الدامغة ولكن اكثريّة المجلس بتشجيع السلطات لم تعبأ بذلك وصدقت الانتخابات واعتبرتها صحيحة .

ولقد تردد نواب الكتلة الوطنية في الاشتراك في المجلس بعد هذه النتيجة ، ثم رأوا أن يسيروا في الشوط مرحلة أخرى فقررروا الاشتراك في المجلس والوزارة . وقد انتخب محمد علي العابد رئيساً للجمهورية بموافقة الوطنيين الذين تفادوا بهذا نجاح مرشح السلطة صبحي بركات ، مع أن محمد علي العابد كان ممن فازوا في الانتخابات من مرشحيها . وتولى رئاسة الوزارة حقي العظم الذي كان كذلك من مرشحيها ودخل جبل مردم ومظهر رسلان من الكتلة فيها .

المعاهدة الانتمايية ورفضها

وبعد قليل ظهر ما كان ميئاً حيث عرض المفوض السامي معاهدة معدة لتحقيق سيادة ولا وحدة فقررت الكتلة انسحاب ممثليها من الوزارة وأعلنت عزمها على مقاطعة المجلس فأجل عرض المعاهدة .

واعفي بونسو من المنصب وعين دومارتيل خلفاً له . وقد اضطلع بعبء عرض المعاهدة وتصديقها . وقد تبادل التوقيع عليها فعلاً مع رئيس الوزارة في اواخر عام ١٩٣٣ ؛ وكانت تنص على توكيل فرنسا في تمثيل سوريا الخارجي ، وفرض مساعدة فرنسا العسكرية في حفظ الامن والدفاع ، وبقاء الانتداب الى ان تقبل سوريا في عصبة الامم ، وتعلق مساعدة فرنسا في هذا القبول على وصول سوريا الى حالة من الرقي تسمح بذلك ، وفرض مساعدة فرنسا في تنظيم دوائر الحكومة والدرك والشرطة والجيش لتحقيق ذلك الرقي في فترة قدرت بأربع سنين مبدئياً ، وبقاء قوات برية وجوية في اراضي سوريا للغايات المذكورة ، كما كانت تنص على استقلال جبل الدروز ومنطقة اللاذقية الذاتي والمالي والاداري . ولم تر فرنسا بأساً بعد كل هذه النصوص في النص على استقلال سوريا وسيادتها ، وعدم اعتبار وجود قوائها احتلالاً ، واعتبار جبل الدروز ومنطقة اللاذقية جزءاً من سوريا لا جريباً مع الذهنية الاستعمارية بأن العرب يقنعون بالاقرال والاشكال ، وقد وجدوا منهم من يقنع بذلك وبوفاقي على المعاهدة .

وقد عرضت الحكومة المعاهدة على المجلس ، وكانت اخبارها قد اثارت هياجاً

وصحبا ؛ فاضطر كثير من نواب السلطات الى التوافق مع نواب الكتلة الوطنية وقرروا رفضها ووقعوا على مضبطة بذلك . ووزعت المعاهدة على النواب وبدى بمناقشة عامة حولها ، والتقى وزير المالية خطاباً مستفيضاً في الدفاع عنها في جلسة ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٣ . حينئذ تقدم جميل مردم الى المنبر فتلا مضبطة الرفض ؛ وبدأ ان السلطات كانت تتوقع ذلك حيث وقف مندوب المفوض السامي وتلا قبل ان ينتهي جميل مردم من تلاوة السطر الاخير من المضبطة قراراً من المفوض بوقف المجلس جاء فيه انه قرر وقف مذاكرات المجلس لانه خرق احكام مواد الدستور بمناقشته في موضوع غير موضوع الميزانية المعروضة عليه تحت تأثير المظاهرات . ولكن محضر الجلسة كان قد دون الوقائع والمضبطة ايضاً . وقد امر المفوض الحكومة بسحب المعاهدة من المجلس فأرسل رئيس الوزارة كتاباً جاء فيه انه ثبت قلة استعداد مجلس النواب للاشتراك في مسؤوليات المعاهدة ولذلك رأى فخامة المفوض السامي استردادها لانه لا يجوز وضع اعباء المناقشة فيها على عاتق مؤسسة لم ترسخ فيها ممارسة الاحكام الدستورية والتقاليد النيابية . .

على ان اكثريه اعضاء المجلس اجتمعت في دار رئيسها بعد ان منعت الاجتماع في دار البرلمان ووقعت بياناً احتجت فيه على تدخل السلطات الانتدابية ووقفها الحياة النيابية ، واعلنت توكيد رفضها للمعاهدة المغايرة لرغائب الامة من وحدة وسيادة واستقلال . وهكذا باءت المحاولة بالافخاق ، واثبتت سوريا وعيها ، وجرفت قوة روحها الوطنية كتلة كبيرة من مرشحي السلطات الذين اخنارتم ليحكونوا آلات طبعة في يدها ؛ وكان لهذه النتيجة رد فعل عظيم في البلاد فاقبمت حفلات الحفاوة والتكريم للنواب ، كما قامت المظاهرات الاحتجاجية على تعطيل المجلس . ولم تكن السلطات التي تستولي الروح الاستعمارية لتخجل بما قالته وفعلته مع انه هو الذي لا يتفق مع المنطق والحق والدستور والواقع .

ومن المؤسف ان الوزارة ظلت في الدست بالرغم عن مامنيته به من صدمة و اخفاق وبالرغم من وقف المفوض السامي للحياة النيابية التي انبثقت من دستور نافذ وقامت الجمهورية الاولى وحكومتها على اساسه ؛ بل انها لم تبال فضلاً عن ذلك ان تكون واسطة تبليغ لقرارات المفوض السامي ؛ بل واقدم سارت شوطاً ابعد في النكابة

حيث نفذت ايعازاً انتقامياً فأنزلت مخصصات اعضاء المجلس وملاك ديوانه رغم نص الدستور .

على ان كل هذا الاندماج والمالأة لم ينجها من المصير المحتوم ؛ فقد اوعز لها بالاستقالة بعد قليل من هذه التمثيلية لتحل محلها حكومة الشيخ تاج الدين .

مكرمة الشيخ تاج الاولى

وحاول هذا اقناع الكتلة الوطنية بالتعاون معه للخروج من المأزق ؛ وقد كان التوتر مشدداً بين الكتلة والسلطات فلم تر الكتلة هذه المرة وجهاً ولا فائدة في ما دعيث اليه فألف وزارته من عناصر أخرى ؛ وظلت الكتلة تتولى تسيير الحركة نحو تحقيق الميثاق وتوالي احتجاجها ونشاطها .

وقد ادى هذا الموقف السليبي الى اشتداد التوتر بين السلطات الافرنسية وحكومة الشيخ تاج من جهة وبين الكتلة التي كان الشعب يؤازرها وينضوي تحت لوائها من جهة اخرى .

قوة الحركة الوطنية وأمرات عام ١٩٣٥

ولم تكد تنتهي سنة ١٩٣٤ حتى اخذت الحركة الوطنية تعود الى قوتها وترجع السلطات الحكومية السورية والانتدابية معاً وكان شعارها سقوط الحكومة التاجية وتحقيق الميثاق على يد الكتلة . وقد كانت الى هذا حركة مقاطعة للكهرباء والترام قادها فخري البارودي أحد رجال الكتلة احتجاجاً على تعسف الشركة الاجنبية ، فكانت هذه الحركة وسيلة الى الهاب الشعور الوطني المتقد ، وعمدت السلطات الى القمع بالعنف فاعتقلت فخرياً وبعض مساعديه ونفثهم الى مركز في الصحراء كما اعتقلت كثيراً من مساعديه الآخرين فازدادت النار اشتعالاً واعلنت دمشق الاضراب العام وتبعتها المدن الاخرى ، واستمر اضراب دمشق خاصة نحو شهرين تكررت فيها المظاهرات الصاخبة والاشتباكات الدموية والاعتقالات ،

وغدت البلاد وخاصة دمشق في حالة ثورية عصبية، كانت تشتد كلما اشتد الافرنسيون في العنف والشدة . وبذل الشيخ ما استطاع من جهد لتلافي الحرج فلم يفلح، وخشي دومارتيل أن تتطور الامور الى ثورة كبرى جديدة، ولم تزل صورة الثورة الكبرى ماثلة للعيان بما كبدته للافرنسيين من جهد وضحايا فجنح الى المسايرة، واجتمع برئيس الكتلة الوطنية هاشم الاتاسي الذي استلم دفة الزعامة بعد موت هنانو ووقع الاثنان اتفاقاً مبدئياً على خطوط حل يتسق مع المطالب الوطنية على أن تجري المفاوضات بشأنها في باريس .

اقالة الشيخ والمعاهدة الثانية

ثم أقال حكومة الشيخ تاج في شباط ١٩٣٦ وعين حكومة انتقالية حيادية برئاسة عطا الايوبي وعضوية وزراء رضيت عنهم الكتلة، واعيد فخري البارودي من منفاه، وأفرج عن بقية المعتقلين وكان ذلك بما اتفق عليه أيضاً، فانفجرت الازمة وفك الاضراب الطويل الذي كان له صدى بعيد في الأوساط السياسية المختلفة والذي كان الاول من بابيه أيضاً بحفاوة وطنية استشعر بها الشعب بعزته وكرامته . وسافر وفد المفاوضات المؤلف من رئيس الكتلة وبعض أعضائها وبعض اعضاء الوزارة الى باريس ومعهوم دومارتيل وجرت مفاوضات انتهت بم عقد معاهدة ايلول عام ١٩٣٦ التي كانت على غرار المعاهدة العراقية - الانكليزية حيث جعلها رجال الحركة الوطنية نموذجاً واسوة ... وقد نصت على السيادة والاستقلال وحق سوريا في التمثيل الخارجي، وعينت فيها فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات تسلم الحكومة الوطنية خلالها ما في ايدي السلطات الانتدابية من دوائر وسلطات حكومية مشتركة وغير مشتركة وتدخل سوريا عقب انقضاء عصة الامم . ومع انها كانت تنطوي على ثغرات عديدة وخاصة في صدد صفة الوحدة السورية حيث أصر الافرنسيون على أن يكون لجبل الدروز واللاذقية ومنطقة الاسكندرون بعض الامتيازات والشخصية الخاصة، وكذلك في صدد مركز فرنسا السياسي والعسكري والارشادي والثقافي والاقتصادي، حيث الحق بالمعاهدة ملاحق تسجل لفرنسا امتيازات

وحقوقاً ومنافع عديدة في هذه الشؤون فانها كانت على كل حال خطوة جديدة
ومستقيمة الى تحقيق الميثاق القومي .

وقد جرت الانتخابات للمجلس النيابي الجديد ففاز مرشحوا الكتلة فوزاً كبيراً،
وانتخب هاشم الاتاسي في كانون الاول من عام ١٩٣٦ رئيساً للجمهورية بدلاً من
محمد علي العابد الذي نصح بالاستقالة تفادياً من الاقالة والخلع ، وتألّفت أول
حكومة يصح ان تسمى الحكومة الوطنية الاستقلالية برئاسة جميل مردم وعضوية
سعد الله الجابري وشكري القونلي والدكتور عبد الرحمن الكيالي ، ونعت عهدها
بالعهد الوطني .

الفصل الثاني

العهد الوطني الاول

١٩٣٦ - ١٩٣٩

- ١ -

الجبهة الوطنية في العهد الوطني

لم يكد هذا العهد يقوم وتستلم الحكم فيه الكتلة الوطنية التي كانت كثرتها من رجال الحركة القومية الأولين ومن كان لهم دور بارز في عهد فيصل وما بعده من جهود التضال حتى أخذ جو الشام يتبدل ويتبسم بعد ذلك العبوس المرير المديد، ويشبه بعض الشبه جوها في عهد فيصل، وأخذ نسيم العزة القومية يهب فينعش الأرواح ويثير الحماس، وأخذت الحركة العربية تستعيد جديتها وحيويتها، والنشاط القومي يبدو قوياً، وأداة الحكم تدور في دائرة الإصلاح والاحياء والانعاش والتنظيم واستصدر العفو عن المحكومين من زعماء الثورة ورجال الحركة القومية فأخذوا يعودون إلى الشام وتقام لهم الاستقبالات الرسمية والشعبية الحافلة، وبالجملة فقد بدأ عهد يبعث في النفوس الاستبشار والتفاؤل .

دسائس الافرنجيين للعهد

غير أن الدسائس لم تلبث أن أخذت تدس لهذا العهد فتعكر صفوه، وتلبد جوه، وتعرقل سيره، وأخذ الناس يشعرون أن فرنسه الاستعمارية لم تتغير، وأن ما بدا منها من الجنوح للملاينة لم يكن الا من قبيل مسايرة الظروف الخارجية والداخلية، حيث كانت نذر الثورة نهدر في الداخل وشبح الحرب العالمية بسبب أزمة عدران الطليان على الحبشة واستعادة الألمان حيويتهم وحريتهم ومطامعهم يتراءى في الخارج

ولقد لعب الموظفون الافرنسيون الحليون وضباط الاستخبارات خاصة في سبيل إحباط هذا العهد دوراً لثيماً وفظيماً جداً. فقد كانوا يتمتعون بأجلاء والمركز والنفوذ والمرتبات الضخمة والامتيازات ووسائل الاثراء المتنوعة، وكانوا المنفذيين للسياسة الاستعمارية التي سير عليها خلال المدة الطويلة، ولم يكن أكثرهم ذوي كفاءات علمية وفنية وإدارية تفسح لهم مجال الرزق الواسع في ميدان آخر أو في فرنسه متلاً، ورأوا في نجاح هذا العهد قطع أرزاقهم ونهاية مجدهم، فقابلوه بالسخط واعتزموا الدس له وإحباطه وعدم تيسير استلام أي إدارة أو صلاحية من الإدارات والصلاحيات التي كانت في يد السلطات الانتدابية والتي نصّت المعاهدة على تسليمها خلال فترة السنوات الثلاث للاحتفاظ بما كانوا يتمتعون به من جاه ورغد رزق من جهة، والكيد لرجال العهد القوميين الذين وقفوا من السلطات الاستعمارية التي كانت تتمثل في أشخاصهم موقف المناضل منذ البدء والذين لم يندمجوا في ما كان يعرض من حلول هزيلة تحفظ لهم ذلك الرزق والمجد من جهة أخرى. فأخذوا يتأمررون على العهد ويكيدون لرجاله بكل وسيلة. وقد أكسبهم طول المران براعة وقدرة في الكيد والدس وإثارة الهواجس والفتن والأحقاد، كما أنهم استطاعوا مع الزمن أن يكونوا أنصاراً وأعضاءاً مأجورين أو طامعين أو حاقدين، ولم يتورعوا عن أي شيء في سبيل تحقيق غرضهم والوصول إلى هدفهم.

ولقد نجحوا في مؤامراتهم ومكائدهم بما بشوه من دعايات وتحريضات، وأثاروه من هواجس وفتن، وشجعوا عليه من شقاق ونفاق ومعارضة حزبية شخصية، وفتحوه تحت أقدام الحكومة من هوات هاربة، وأدخلوها فيه من مآزق محرجة، ونحتوه من أثلتها وأضاعوه من هيبتها ونفوذها وعطلوه من مشاريعها في سورية، وبما لفقوه من أكاذيب ورفعوه من تقارير في باريس، وقد استند رجال الأحزاب الاستعمارية والعسكرية إلى ذلك كله، واستغلوا ما كان من أزمات عالمية فحصلوا الحكومة الافرنسية على أن تخطو في النهاية خطونها الفادحة إلى نكث العهد ونقض الميثاق، ونقض اليد من المعاهدة التي وقعت، والعهد الذي قام عليها.

ومع أنه قد يكون ارتكب في هذا العهد ومن قبل رجاله القاتنين به بعض الأغلاط ووقع بعض المفوات، وكان هناك بعض اجتهادات وأعمال خاطئة أو

تقصير في ما يجب العناية به من مختلف الشؤون وخاصة وسائل النضال وتقوية
الجهات الشعبية، أو كان هناك جنوح الى مسايرات ومساعدات إرضائية في الوظائف
وغيرها، ومع أن الضعف في بنية الامة ظل شديداً لا يمكن المكابرة فيه فان هذا
وذاك كانا طبيعيين بعد أن مر بالبلاد ما مر من عهد طويل مملوء بالدسائس والمكائد
والدعائيات والعثرات والعراقيل والتوجيهات الاستعمارية، وبسبب عدم مراات
الفئات الصالحة في أخلاقها وقابلياتها وعدم النضوج بوجه عام في شؤون الحكم
والدولة، ثم بسبب ما كان جائئاً على صدر البلاد من كابوس إرث استعماري ضخم
من القوانين واللوائح والموظفين والوظائف والمناهج والتنظيمات والشركات
والامتيازات وجهاز الحكومة، وإنه كان في الامكان تحسن الحال واستقامة الأمور
والسير في سبيل الاصلاح الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والتشريعي والاداري،
وتقوية بنية الامة لو تيسر لهذا العهد دوام وبقاء، ولم يقف الافرنسيون منه وبالتالي
من الحركة العربية التي تمثل فيه موقف الغدر والدس كما وقفوا موقفهم من عهد
فيصل والحركة العربية التي تمثلت فيه، والسائق لهم الى هذا الموقف هو السائق
الى ذلك بطبيعة الحال، أي مناوأة الفكرة العربية وشل الحركة بسبيلها وتعطيل
كل حيوية في الامة والحيولة دون أي تقدم وقوة فيها وتسخير البلاد وأهلها
لسلطاتهم وإستغلالهم وتحكمهم تسخييراً تاماً كل ما يمكن أن يسمحوا به أن يكون
مضروباً عليه بستار شفاف مزيف من أشكال باهتة وكلمات جوفاء .

- ٢ -

عدم الحزم الزد الدسائس

ومما يجدر بالتسجيل ان دسائس الموظفين الافرنسيين أخذت تلمس منذ أوائل
هذا العهد بمختلف الاشكال فلم تقابل بالحزم الكافي، فكان ذلك عاملاً في تماديهم
في خطتهم الى أن وصلت إلى البشاعة التي لا يمكن أن تطاق، وظهرت أصابعهم
الملوثة صريحة واضحة دون ما خجل أو تستر في كثير من الاحداث والمناوآت
والفتن .

ولقد كانت الجزيرة وجبل الدروز ومنطقة اللازقية خاصة من مسارح هذه الاحداث والمناوآت والفتن التي قام اولئك الموظفون بأدوارهم الحثيثة عليها، ووجهوا الى العهد وكرامته وهيبته أشد الطعنات منها .

موقف نصارى الجزيرة من الدروز

ولقد كان من التبايرين الذين يسمون أحيانا بالاشوريين تسمية مغلوطة جماعات ساكنة في البلاد التركية المتاخمة للعراق وسورية الشمالية، وكانت وسيلة شغب وفساد وتمرد في الانحاء التي كانت فيها في أيدي الاجانب، فلما نجحت الحركة الكمالية اضطرت الى مغادرة الاراضي التركية فشجعهم الانكليز والافرنسيون على الهجرة الى العراق وسورية والتوطن فيها، وأنزل الذين أتوا الى سورية في محطة القامشلي وحواليها في الجزيرة، ومنحوا الاراضي والمساعدات للتوطن والاستقرار، وادخل فريق منهم في الجيش السوري . وقد انضم اليهم بعض الذين هاجروا الى العراق حيث وقف هؤلاء من حكومة العراق واعتماداً على ما رأوه من عطف الانكليز ورعايتهم موقف المتمرد المشاغب، فكان باعثاً للحكومة العراقية على التنبيل بهم، ففر المشاغبون من العراق الى سورية، وشجعهم الافرنسيون على التوطن عند اخوانهم السابقين، فتكوّن من هؤلاء وأولئك ومن بعض الشراذم العنصرية والنصرانية الاخرى مجموعة بلغ عددها نحو عشرين الفا استقروا في قرى الحسبه وعاموده والقامشلي، وقد وجد الافرنسيون في هذه المجموعة عنصر شغب ودس، واستجابت هي اليهم لتتال الرعاية والحماية الافرنسية في وسط الحضم العربي الاسلامي الذي هم فيه والذي تتكون أكثرية الكبرى المحلية من البدو والاكراد، فصارت لهم أنصاراً وأعضاءاً وعيوناً وأداة شر وفتنة، وكانت قتبته في كل اتجاه يريد الافرنسيون أن يكون فيه معاكسة ومغايرة للامال الوطنية والحركة العربية الاستقلالية، كما كان المجندون منها في مختلف الحركات والمواقف وسيلة تنفيذية صادقة في الاخلاص لهم موثوقة من قبلهم .

فلما كان العهد الوطني حرك ضباط الاستخبارات والموظفون الافرنسيون هذه

الأداة ودفعوها الى التمرد والشغب وفقا للنهج الذي رسموه للتشويش على هذا العهد وإحباطه، فأخذت تطالب ببقاء الحماية الافرنسية، وعدم الاندماج في الحكم السوري، وجعل منطقتها ذات شخصية مستقلة كجبل الدروز ومنطقة اللاذقية، وتوافقت بقوة التحريض والتشجيع حتى وصل الامر بها الى منع كل من يود التوطن في منطقتها بمن يريد الاعمار والعمل من أهل انحاء البلاد الاخرى المسلمين والبنغي عليهم والكيد لهم وسد المنافذ في وجوههم والى التظاهر والاعتداء كذلك على موظفي الحكومة ورفض أوامرها وقوانينها والامتناع عن أداء ضرائبها على مرأى ومسمع من اولئك الضباط والموظفين، بل ولقد حاصر بعض اشقيائهم المحافظ مرة في بيته، واطلقوا النار مرة على محافظ آخر في طريقه الى الحسبة ليحل محل زميله، وخطفوا مرة ثالثة محافظا آخر وابقوه سجيناً في مكان مجهول بضعة ايام كرهن على اجابة مطالبهم !

وفعلوا هذا في جبل الدروز الذي كان لهم فيه القدم الراسخة والاعضاد والانصار والذي انتهجوا نهجا خاصا فيه ليكون لهم نقطة ارتكاز وكيد في المواقف العصبية . على ما ذكرناه في مناسبة سابقة .

وسائل الافرنسيين في جبل الدروز ضد العهد الوطني

ولقد كان المأمول أن تكون الثورة السورية الكبرى التي ساهم الدروز فيها بنصيب وافر جدير بالاعجاب والتقدير والفخر، والتي كان قائدها العام منهم وامتزج فيها دمهم بدم اخوانهم السوريين، والتي كان من أهدافها وحدة سورية واعتبار جبل الدروز جزءاً منها بما كان يتكرر قويا بارزاً في مناسير قائدها العام كافية لازالة النعرة الطائفية والانقباضية ، وغسل الهنات المتوارثة فيهم . غير أن الافرنسيين لم ييأسوا وظلوا على دسهم ومكائدهم ونهجهم الاستعماري الذي رسموه بعد فتور الثورة وزاد في جرأتهم في ذلك تغيب أبطالهم المجاهدين مشردين في الصحراء . فلما عقدت المعاهدة وانبثق عنها العهد الوطني واعترف فيها بجبل الدروز كجزء من سورية، ساروا على نفس الحطة في إبقاء الجبل مجالا لدسهم وكيدهم، واستغلوا

ما نصت عليه المعاهدة من الاستقلال المالي والاداري المحلي فيه فأخذوا يشجعون أهله على التشدد في الاحتفاظ بشخصية جبلهم وطائفتهم ، ويعرقلون مساعي رجال العهد في إثارة الروح القومية فيهم ، وإقامة العهد الجديد على اساس التضامن والامتزاج التامين بينهم وبين سائر أجزاء سوريا وابتنائها بما هو طبيعي جداً لأن الدروز اقحاح في عروبتههم ولأن شخصيتهم الطائفية ليست إلا اثرأ من اثار تيارات السياسة التي كانت في بعض ادوار التاريخ الاسلامي - ويدفعون بعض زعمائهم وأنصارهم وطامعهم وآلاتهم وماجوريهم الى الشغب على الحكومة الوطنية ويمثلها وموظفيها حتى وصل الامر الى اقامة المظاهرات العدائية المسلحة ضد هؤلاء الممثلين والموظفين وطرد بعضهم على مرأى ومسمع من ضباط الاستخبارات والموظفين الافرنسيين ، بل لقد كان تشجيعهم على هذا الشغب جهرة وعياناً دون ما تستر ولا إستخفاء ، وجعلوا مشكلة الجبل من مشاكل هذا العهد ومنغصاته حتى استمرت المشكلة بعده أيضاً لمدة طويلة ، ولم تكد تنتهي الا في الحقبة الاخيرة .

مسائهم في منطقة اللاذقية

وما فعلوه في جبل الدروز فعلوه في نصيرية منطقة اللاذقية التي نصت المعاهدة على اعتبارها جزءاً من سوريا والتي كانوا فيها أرسخ قدماً بسبب ما كان يوجد فيها من المسلمين السنيين النافذين في بعض المدن ، ولقد قوا أنصارهم من الزعماء والمشايخ بالمال والسلاح وحفزوهم إلى الوقوف موقف المتمرد الباغي على السلطات الحكومية السورية ، يتحدون نظامها وقوانينها وأمتها وهيبتها ، وكان هذا منهم كذلك جهرة بدون تستر أو إستخفاء ، حتى لقد كانوا يستقبلون زعماء الشغب في بيوت وهم مدججون بالسلاح ومعهم اتباعهم المدججون به ايضاً ، كما كان ضباطهم يزورونهم في مراكز شغبهم ويتبادلون معهم الهدايا ، وجعلوا مشكلة هذه المنطقة من مشاكل العهد الوطني ومنغصاته التي استمرت بعده ايضاً لمدة طويلة ولم تكد تنتهي إلا في الحقبة الاخيرة كذلك .

فيانه الافرنسيين والانكليز في قضية الاسكندرون

وبما هو حري بالتسجيل من المواقف الغادرة الافرنسية في هذا العهد حادث الاسكندرونه . فهذه المنطقة جزء متمم لسوريا من الوجهة الاقتصادية والجغرافية، وهي مسكونة بأكثرية عربية اكثرها من النصيرية وفيها اقلية ارمنية كما فيها اقلية تركية كبيرة .

ولقد حرص الافرنسيون وفاقاً للمنهج الاستعماري الذي ساروا عليه باستغلال كل فرقة طائفية وعنصرية ودينية في سوريا وتقويتها بسبيل مناوأة الفكرة العربية القومية وتوطيد اقدامهم على ان تكون هذه المنطقة بسبب ما فيها من مظاهر وفروق طائفية وعنصرية مسرحاً من مسارح دسهم وكيدهم ؛ فاعتبروها ذات شخصية خاصة كما فعلوا بالنسبة لمنطقتي جبل الدروز واللاذقية، وحكموها في اكثر الظروف حكماً عسكرياً مباشراً ، وجرباً على ذلك اصدروا لها دستوراً خاصاً حينما اصدر بونسو دستور سوريا كما فعل بالنسبة للمنطقتين على ما ذكرناه سابقاً . وفي معاهدة عام ١٩٣٢ نص على شخصية خاصة لها كما فعل مثل ذلك بالنسبة للمنطقتين المذكورتين ايضاً ، واصر الافرنسيون على شيء من مثل ذلك في معاهدة عام ١٩٣٦ وإن كان جاء اخف مما كان .

ولقد كانت الاتراك بزعمامة مصطفى كمال بيتون في انقسام الطمع في المنطقة ويعتبرونها جزءاً من دولتهم ويتحينون الفرص لتحقيق مطمعهم . وقد سجلوا تحفظهم في شأنه في اتفاق الهدنة الذي عقده مع فرنسا على انفراد في سنة ١٩٢٠ ، فاعتبروا تحفظهم هذا تسجيلاً لحق قبل به الافرنسيون ، فكان ذلك بما يقوي مطمعهم ؛ هذا مع التنبيه على ان هذا التحفظ لم يعد له قيمة بعد معاهدة لوزان التي عقدت بينهم وبين الحلفاء عام ١٩٢٢ والتي لم يسجل فيها شيء من هذا القبيل . وبما لا ريب فيه ان المنهج الاستعماري الذي انتهجه فرنسا وموظفوها قد كان عاملاً في تقوية هذا المطمع ؛ ولو لم ينتهجوه وغدت المنطقة محافظة عادية كسائر محافظات سوريا لكان من المحتمل ان لا تقع كارثة سلخها عن امها بغيماً وغدراً .

ولقد استقرت حالة تركيا الحديثة وقويت خلال الخمس عشرة سنة التي مرّت بين معاهدة لوزان وتاريخ الكارثة فقوي مطعمها في اللواء ، وغدا ضم المنطقة اليها طائفاً مستمراً في ذهن زعيمها ورئيس جمهوريتها . وكانت معاهدة ١٩٣٦ والعهد الوطني الذي قام على اساسها ، من الحوافز للحركة العاجلة خشية نجاح العهد وصعوبة تحقيق المطمع بعد مرور مدة من الزمن . وقد كان ما بدا من فرنسا وموظفيها من نية الغدر والنكث وإجباط عهد المعاهدة من مقربات اهل تركيا وزعيمها والباعث على حركتهم ؛ فأخذوا في تحريك اترك المنطقة اولا ودفعهم الى المطالبة بالانضمام الى تركيا أو قيام جهاز حكومي تركي فيها يزعم ان اكثرية سكانها تركية ، ولم تلبث الحكومة التركية ان ظهرت على المسرح رسمياً وعلناً لتعضيد حركتهم ، فانارت الموضوع في عصبة الامم .

ولقد كانت فرنسا وبريطانيا اعترفتا بالتقرب الى تركيا واخذها لجانبها حينما بدا من هتار ما بدا وتآزمت الأحوال فسايرتاها في موقفها وتقرر نتيجة لذلك احصاء اللواء تحت اشراف لجنة دولية . وقد رافق الاحصاء ضغط وتلاعب سافرين من تركيا وفرنسا بما أثار سخط اللجنة وجعلها توقف عملية الاحصاء . ومع ذلك فقد ظلت تركيا تسير في سبيل غايتها وظلت فرنسا تستجيب اليها . ونتج عن ذلك وضع قانون اساسي تطبيقي للواء من قبل عصبة الامم في شهر مايس من عام ١٩٣٧ ، وقد نص القانون في ما نص الى ان يكون اللواء مستقلاً استقلالاً داخلياً تاماً ، وتابعاً في الخارجية لسوريا فتطبق فيه الاتفاقات الدولية السورية ويرعى ممثلو سوريا وقضاؤها شؤون اهلها ويحمل هؤلاء جوارات سورية ، وكذلك نص على ان يكون بين اللواء وسوريا وحدة جبركية ونقدية ، واعتبر اللواء فيه مجرداً من السلاح وحظر فيه الخدمة الاجبارية وصناعة السلاح ومروره ، وجعل لتركيا ميناء حر في مرفأ اسكندرون تكون متممة فيه بالسيادة التامة . وقد نص النظام فيما نص على ان يكون اللواء مجلس تمثيلي ثمانية من اعضائه ترك وستة علويون واثنان سنيون وثلاثة من الطوائف المسيحية ، وان يكون له حكومة على رأسها رئيس منتخب من قبل المجلس لمدة خمس سنوات ، وان تكون اللغة التركية هي اللغة الرسمية الاولى واللغة العربية اللغة الرسمية الثانية . ثم عقدت اتفاقيات بين فرنسا وتركيا تبادلنا فيها التعهد بضمان الحدود بين تركيا وسوريا واللواء وبتأمين الامن في اللواء واندفاع عنه بواسطة قوة افراسية وتركية متساوية .

ومع ما انطوى في هذا من نذر انسلاخ اللواء عن سوريا وقيام حكومة تركية تقريباً في اللواء فإن فرنسا اقنعت الحكومة السورية بالموافقة على امل انت. يقف الامر عند حد الشخصية المستقلة اللواء ضمن الدولة السورية .

على ان الامر لم يقف عند هذا الحد. فقد استند جو اوروبا قليلاً في اواسط عام ١٩٣٨ واشتدت رغبة الانكليترا وفرنسا في مخالفة تركيا التي وجدوا فيها سداً لحاجتهم؛ ولا سيما انهم ضامنون من بلاد العرب وحكوماتها ما يبتغون بالمعاهدات القائمة بينهم وبينها والتي احتوت ما احتوته من القيود والشروط وبواقع احتلالهم وسيطرتهم في مصر والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن فعرضوا عليها التحالف . وبالرغم من ان حاجتها الى هذا التحالف لا تقل عن حاجة فرنسا وانكليز بل تريد بسبب جوارها من روسيا وحسبها المستمر منها فإت رجالها احسنوا استغلال الموقف من كل جهة ، وطالبوا بضم منطقة الاسكندرونه الى دولتهم . ووازن الافرنسيون والانكليز بين العرب والترك فوجدوا ان هؤلاء اقوى وزناً من الوجهة الحربية والسياسية بالرغم من تفوق العرب في العدد ، فلم يعبأوا بهؤلاء وفضلوا ارضاء الترك على حسابهم ، ورافقوا على ضم المنطقة إلى دولتهم غير آبهين للعرب وحقوقهم ولا لشرف العهد الدولي الذي قطعوه على انفسهم والذي ينص بصراحة في صك الانتداب على تحظير التنازل عن ارض ما من سوريا، وسارع الاتراك فاحتلوا المنطقة ورفعوا عليها علمهم غير آبهين كذلك بالعرب وحقوقهم وعواطفهم . وكان ذلك في اوائل تموز من عام ١٩٣٨

وهكذا ارتكب الافرنسيون خيانتهم الكبرى ضد الوطن السوري العربي وشاركهم فيها الانكليز الذين كانوا دائماً وما يزالون ابطال المساومات على حساب العرب وحقوقهم وابطال المآسي الغادرة فيهم .

ولقد كان لهذه المأساة رد فعل جارح في نفوس السوريين حكومة وشعباً فقامت المظاهرات وارسلت الاحتجاجات ، وكان هذا كل ما في استطاعتهم ان يفعلوه إزاء المؤامرة الغادرة .

- ٤ -

عدم الانسجام في الافرنسيين وآثره في ما فاسمه سوريا

وبما يجدر تسجيله بهذه المناسبة التناقض والتفكك وفقدان الانسجام في

اسلوب الادارة الافرنسية وبين كبار الموظفين الافرنسيين بل وصغارهم أحياناً كثيرة وفي سوريا وباريس بما يرتد اليه كثير من ما كان مسن مشاكل ومآزق وعثرات ومآس وعسف وبغي في هذا العهد بل طيلة المدة التي بليت فيها سوريا بفرنسا. فدو مارتيل الذي كان أكبر موظفيهم والناظم لسياستهم في سوريا كان قنع وصدق الرغبة في حل قضية سوريا على أساس التفاهم مع الكتلة الوطنية أولاً وعلى أساس مرض ثانياً ، واستطاع أن يقنع رجال حكومته في باريس فتطابقوا معه وكانت نتيجة ذلك عقد المعاهدة التي كانت تتضمن نصوصاً يصح أن نجعلها مرحلة واحدة بقطع النظر عن ما فيها من ثغرات . فالمفروض أن تصبح هذه النتيجة سياسة فرنسا العليا المرسومة وأن تكون هي الناطقة لأعمال وتصرفات الموظفين الافرنسيين الى أن يتقرر الانحراف عنها في الأوساط العليا التي رسمتها على الأقل . ولكن الذي وقع هو عكس هذا تماماً . فالمندوب السامي عاد يحمل تلك القناعة والرغبة في السير في تطبيق ما تم التعاقد عليه سيراً تزيهاً يغذيه حسن النية على ما ظهر منه، بينما أباح كثير من الموظفين الافرنسيين لأنفسهم أن يسيروا في طريق تتناقض مع ذلك كل التناقض ؛ ثم أباح كثير من رجال فرنسا الحكوميين والبرلمانيين الذين كانوا من أحزاب الحكومة المتعاقدة أيضاً لأنفسهم وضع العراقيل والعثرات في سبيل حسن تطبيق المعاهدة، ومسحها شيئاً بعد شيء، والتأمر مع بعض الموظفين في سوريا على ذلك عن غير طريق المندوب السامي وعلى غير رغبته وقناعته ، حيث كان هؤلاء الموظفون يرسلون التقارير ويتلقون التوجيهات رأساً على ما استفاضت أخباره حينئذ .

واقدر كان هذا التناقض والتفكك وفقدان الانسجام يبدو كذلك في تصرفات وأعمال المندوبين والموظفين الافرنسيين أنفسهم أيضاً ، حيث كان يقع أن يكون لو كبل المندوب السامي في دمشق تصرف واسلوب يتناقضان تصرف واسلوب المندوب أو موظفي المندوبية الرئيسيين وفي أمور تتعلق بالسياسة والادارة العامة بما هو مفروض أن يكون له ضابط عام منسجم واحد ، وحيث كان يقع نشاذ وتجاذب وتدافع حول السياسات المحلية يبدو آثاره للناس ، ثم يبقى المتمرد الشاذ في عمله فلا يستطيع الرئيس أن يبلي على مرءوسه رأيه ومجمله على السير فيه . بل لقد

كان هذا يظهر في المفوضين السامين أنفسهم بحيث يبدو منه أن لكل منهم سياسة شخصية وأنه لم يكن لحكومة فرنسا سياسة عامة مرسومة. فغورو سار على سياسة وويغانده على سياسة وسراي على سياسة وجوفيل على سياسة وبونسو على سياسة ودومارتييل على سياسة وبيو على سياسة بينها قليل أو كثير من التناقض .

- ٥ -

جمهورية حكومة العهد الوطني في سبيل المعاهدة وفشلها

ولقد أرادت حكومة العهد الوطني إنقاذ المعاهدة والتغلب على ما قام أمامها من عثرات بأي ثمن ، فسارعت أولاً إلى عرض المعاهدة على المجلس النيابي وأخذت مصادقته عليها ، ثم أخذت تبذل جهودها في باريس لمثل ذلك باعتبار أن التصديق عليها فيها قمين بإيجاد الاستقرار وإحباط المكائد وإزالة العثرات . وقد زار رئيسها باريس لهذا المقصد أكثر من مرة ، فكان يراوغ معه ويعتذر له بانتظار الوقت الملائم ، ويستغل موقفه وما كان يلقاه العهد من دسائس وعراقيل ومآزق ، وما كان من مواقف الأحزاب العسكرية والاستعمارية استغلالاً لثيما فيقترح عليه صيغ جديدة من التحفظات والالتزامات والتفسيرات والملاحق التي كادت تخرج المعاهدة من نطاقها الاستقلالي ، وأدت إلى أزمة بين أعضاء الوزارة استقال بعضهم فيها كما أدت إلى خلاف وفتور بينهم وبين رئيس الجمهورية فيضطر إلى التوقيع عليها على أمل إنقاذ المعاهدة والعهد ، حتى لقد استغلت فرنسا هذا الموقف فأملت على الحكومة السورية عملاً ضد المصلحة العربية وبسبيل إبقاء سوريا منعزلة عن التضامن مع الأقطار العربية الأخرى في قضية فلسطين وغيرها فسايرتها فيه ، ونعني به العدول عن الاشتراك في وفد المؤتمر البرلماني الذي قرر هذا المؤتمر المنعقد في القاهرة عام ١٩٣٨ إيفاده إلى لندن ، وكان فارس الحوري رئيس المجلس النيابي قد سافر من دمشق إلى لندن بطريق الآستانة لهذا الغرض ، وقد كان رئيس الحكومة السورية في باريس فطلب منه الإبراق لفارس الحوري بعدم متابعة سفره ، ولقد حالت الحكومة الفرنسية كذلك ولنفس الغاية دون اشتراك الحكومة

السورية في مؤتمر لندن الذي دعت اليه الحكومة البريطانية الحكومات العربية في آخر عام ١٩٣٨ ، فسكتت مسايرة في ما كان على شدة الرغبة الانكليزية وخطورة المؤتمر الذي سجل فيه خروج قضية فلسطين من نطاقها المحلي ودخولها في نطاق العروبة الامم . وبما كان بسبيل عدم تسيب تشاد وخرج عدم متابعة الحكومة السورية امر استلام الادارات والصلاحيات التي كانت في يد السلطات الانتدابية والتي كان الموظفون الفرنسيون يهتمون كل الاهتمام لاستبقائها في أيديهم بما كان له مساس شديد في مفهومات سيادة الدولة وكيانها ونشاط الحكومة ومتناولها ، وعدم إثارة تعديل الدستور الذي أصدره بونسو مشوهاً معدلاً مسموحاً عن دستور الجمعية التأسيسية بما فيه المادة (١١٦) الاضافية التي كانت تشمل معاني السيادة والاستقلال !

على أن كل ما كان من الحكومة السورية من استجابات ومسايرات وتحاشٍ للتشاد والخرج لم يفدها إلا تكييل البلاد بالقيود وتعريضها نفسها للنقد والتجريح وضباع الهيبة ، ومنح فرنسا وسائل كيد جديدة للبلاد وأهلها ، وظلت الحكومة الفرنسية على ما سارت عليه من خطة التمهيط والاعتذار الى أواخر عام ١٩٣٨ ثم عرضت المعاهدة على البرلمان وأحيلت الى لجنة الشؤون الخارجية لمجلس النواب الفرنسي ، وأخذت تصدر في نفس الوقت من المقامات الفرنسية البرلمانية والرسمية والدوائر السياسية تصريحات ضدها ، ووقفت الصحافة في موقف التأييد لهذه التصريحات كأغما كانت هناك مؤامرة محبوكة ، فلم يلبث أن أعقب هذه الحملة قرار من لجنة الشؤون الخارجية المذكورة في أوائل عام ١٩٣٩ برفض عرضها على المجلس بشكلها الراهن ، وصدر هذا القرار بينما كان رئيس الوزارة في إحدى رحلاته الى باريس يبذل جهوده البائسة . ثم بدل دو مارتييل ببيو الذي لم يلبث أن أذاع فور وصوله قرار فرنسا بلزوم إعادة النظر من جديد ووضع نصوص معاهدة جديدة على ضوء الاختبارات ، ثم أعلن ممارسة سلطة المندوب السامي الانتدابية الى أن تعقد المعاهدة الجديدة ، وأخذ يتدخل في شؤون الدولة على أساس هذه السلطة .

سحب المعاهدة وأثره

ولقد تأزم الموقف بسبب هذه النهاية اللئيمة واضطرت الحكومة الى الانسحاب بضغط الرأي العام والمكائد الافرنسية حيث اعتبر المندوب أن سوريا مقيدة بما وقعه رئيس حكومتها من ملاحق وتفسيرات والتزامات ، مما يعتبر غاية في اللؤم والاستغلال والكيد والابتعاد عن كل منطق ، لأنه تمسك بالفرع مع نقض الأصل الذي نشأ عنه ! وكان من جملة ذلك ملحق بمنح جبل الدروز ومنطقة اللاذقية استقلالاً ذاتياً ، وملحق آخر بتنظيم الشؤون الطائفية أثار بعض علماء الدين حوله ضجة لا تحمليها النصوص والمدى ، وكانت من الأسباب المباشرة لانسحاب الحكومة .

ولقد خلفت الحكومة وزارتان أخريان حاولتا تعديل الموقف فلم يمكن الوصول الى حل مرض فاستقالا دون أن يلبثا طويلاً ثم استقال رئيس الجمهورية موجهماً لاستقالته الى رئيس المجلس النيابي فكان آخر حياة هذا العهد .

- ٦ -

تعليلات على موقف الحكومة الوطنية ازاء دسائس وغرر الافرنسيين

ولقد بدت دسائس الافرنسيين وسوء نياتهم في سوريا وباريس ضد هذا العهد مبكرة فظنت الحكومة أن في الامكان التغلب على الموقف ، وسارت في سبيل ذلك خطوات متنوعة منها ما ذكرناه آنفاً فلم تعد عليها إلا بإضاعة مزايا كثيرة من روح المعاهدة وقوتها ، على ما كان فيها من ثغرات ، وكان ذلك سبباً من أسباب التماذي في طلب المزيد من التفسيرات والتزامات والملاحق الى أن صارت أقرب الى الانتداب منها الى السيادة والاستقلال . ومع ذلك فقد ظلت الحكومة متشبثة بالكرسي باجتهاد السير الى آخر الشوط ، فكان ذلك عاملاً في ضياع هيبتها ونحت أثلتها وإثارة النفوس ضدها وإضعاف مركزها والثقة فيها ، وفسور روح النضال وخمود الحماس في الأمة ، والتصاق ذلك كله بالكتلة الوطنية واتحاء طابع النضال القومي تقريبا عنها ، وهو الطابع الذي لم ير الافرنسيون بقوته سبيلاً الى تهديده

الحال إلا بالتفاهم معها .

وهذا الموقف في رأينا كان خطأ وضاراً معاً . واهله من أبرز الأخطاء في هذا العهد من الوجهة القومية والنضالية . وقد صارعنا برأينا هذا المرحوم سعد الله الجابري في اجتماع لنا معه بمناسبة استقالة شكري القوتلي من الوزارة وتقديمه استجواباً عن ما فعله رئيس الحكومة في رحلاته وعن سياستها بعد ما صدر من فرنسا ما صدر من تصريحات ، فقال إنهم يفضلون الاستمرار في الشوط الى نهايته والنضال في داخل الحكومة . ولو فعلوا هذا أو لو أنهم استغلوا وجودهم في الحكم وهبوا وسائل النضال حينما خرجوا أو بالأصح حينما أخرجوا من الحكم لكانوا يبرروا استمرارهم في الحكم وحمد الناس لهم ذلك ، واثبتوا احتفاظهم بطابعهم النضالي ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً داخل الحكم حينما أعلنت فرنسا نكثها وأذاع مندوبها سحب المعاهدة والعودة الى ممارسة السلطات الانتدابية التي كانت يمارسها المندوبون قبل المعاهدة ولا كانوا هبوا أسباب النضال حينما خرجوا من الحكم مع أنهم قضوا فيه نحو سنتين ونصف ، فضلاً عن ما أصاب العكاملة الوطنية من تخطيط ووقع فيها من تخاذل ، مع أن الدلائل أخذت تقوم مبكرة على سوء نية فرنسا وموظفيها وكانوا هم أنفسهم يلمسونها عياناً .

ولا ندري إذا كان اجتهادهم يمت بصلة ما الى ما كان وجه من انتقاد الى رجال عهد فيصل - وهم منهم - على ما أبدوه من تطرف ورفض وإباء للملاينة حيث قيل ان هذا هو الذي أدى الى انهيار العهد ، وان رجاله لو ساروا بروح الملاينة والمسايرة والتروي قبل تقام الخطب واتساع الفتق لأمكن انفاذ الموقف مما بسطناه في الجزء الاول ، وعلقنا عليه ، فأراد القارئون بالعهد الجديد أن يتفادوا فكرر المسألة وأن يستمروا في الشوط الى نهايته . وانتهاء الشوط الى ما انتهى اليه مع ما كان من ملاينة ومسايرة هما أدخل في باب الميوعة والهوان أثبت صحة اجتهاد رجال ذلك العهد من الوجهة النظرية ولا سيما أنهم لم ينتفعوا من وجودهم في الحكم وهبوا أسباب النضال كما كانوا يقولون ويأملون . فليس من امكان لجعل المستعمر وخاصة الافرنسي يتراجع عن موقفه بالمسايرة والملاينة ، بل وانها ليزيدانه عناداً وقوة . وكل ما اظهر من استعداد له هو ان يستمر مقصده بالاشكال والالفاظ

المزيفة الجوفاء . وقد رأينا محاولات الانكليز في العراق ومصر في ما كانوا يعرضونه ويفرضونه من حلول ومعااهدات . وليس من حد يمكن أن يلتقي عنده الاستعمار والسيادة بالتوافق والتطابق .

وبما يجدر تسجيله أن شكري القوتلي قد انسحب من الوزارة بسبب ما وصل اليه الموقف من ميوعة وتساهل ومحاولات خائبة ، وقبل أن يصل امر الوزارة الى الحرج الشديد الذي وصلت اليه فكسب بعمله هذا عطف الجميع واحترامهم ، وكان من جملة أسباب ما ظل يتمتع به من الاحترام والثقة وحسن الاحدوثة والمركز الذي جعله في ما بعد رجل الساعة في سوريا .

ونعتقد ان وزارة الكتلة لو غضبت لكرامتها واستقالت في عهد مبكر لكانت الهبت حماس الشعب وروحه النضالية ، ولاضطر الافرنسيون الى الكف والتراجع ، ولكانت قضية سوريا وعهدها الوطني اكتسبا قوة ومكانة عظيبتين ؛ هذا عدا ما في الاستقالة من معنى الاستنكار والنضال الوطني في حد ذاته مما يتناسب مع طابع الكتلة النضالي .

والنقد نفسه في روحه موجه إلى وزارة لطفي الحفار الكتلية التي خلفت وزارة جميل مردم ، فانه ما كان للكتلة أن تقدم على تجربة ثانية بعد ما كان من إخفاق التجربة الاولى وخيبتها ومرارتها على ما كان لوزارة الكتلة الاولى من محاولات وجهود كادت تخرج في لينها وأملها عن الحد الذي يصح الرضا به ، ولا سيما أن نيات فرنسة الغادرة قد ظهرت واضحة لا تتحمل اجتهداً ولا محاولة ؛ وإن مندوبها أخذ يستعمل سلطاته الانتدابية المتنوعة في التشريع والادارة .

ومن عجب ما وقع مما هو متصل بهذا الموقف ان الحكومة وقفت موقف المكابرة قبل الاستقالة في صدد تصريحات بيو التي احتوت سحب المعاهدة لاعادة الدرس وحاولت تسكين غليان الساخطين من النواب ورجال الكتلة اوشباها وإقناعهم بإمكان تعديل الموقف ، وتخفيف وقع التصريحات عليهم مع ما كان من صراحة وقطعية في موقف فرنسا ورجالها في باريس وسوريا وفي التصريحات نفسها ولقد أهاجت تلك التصريحات وهذا الموقف الافكار وجعلت الشباب والمتحمسين يدعون الى الاضراب ، وبدأ الجو يندثر بانفجار، وصارت تسمع صوت المفرقات

والأعيورة النارية ، بل وصارت المفرقات تلقى على حافات انوار والمحازن غير
المضربة ، وأخذت تقسوم بعض المظاهرات تهتف للاستقلال وتسقط الاستعمار
والحكومة ، وكانت يد معارضي الكتلة والناقمين على حكومتها ظاهرة في هذه
الحركة ، وكان موقف متناقض حيث لا تتحرك الكتلة التي تمثل النضال ضد ما
حدث فيقوم مقامها فيه معارضوها ! ومن تمام العجب والتناقض أن بعض جماعات
منسوبة الى الكتلة كانت تنصدي للمتظاهرين والمهتفين لمنهم من المظاهرة فيقع بين
الطرفين اشتباكات دفاعاً عن الحكومة التي ظلت متمسكة بكراسيها الى آخر
اللاخطات .

ولم يتسنّ لثورة الافكار وغلباتها وما نتج عنها من مظاهرات وإضرابات
استمرار لأنها لم تجد من يغذيها . وقد سارعت السلطات الافرنسية فأنزلت فصائل
السنغاليين الى الشوارع وقبضت على عدد كبير من الشبان المتحمسين وساقتهم الى
المحاكم وعذبتههم أثناء التحقيق كما اعتقلت فربقاً من رجال الكتلة وشبانها أي نبيه
العظمة ورفقاء ممن كانوا يمثلون الجناح المتطرف فيها ونفتمهم الى تدمير وتواري بقية
المرموقين المتطرفين ، فلم تلبث أن هدأت الحالة .

ونقول كذلك ان استقالة رئيس الجمهورية قد تأخرت أكثر مما يتحمله طابع
النضال الذي كان يمثله بوصفه زعيم الكتلة الوطنية . وإذا كان مما يمكن أن
تسع له حوصلة الايجابية التي جنحت الكتلة الى سلوك سبيلها في هذا المهد أن يظل
الرئيس في الدست قبل أن يعلن المندوب السامي بصراحة عودته الى ممارسة سلطاته
الانتدابية وطيلة بقاء وزارة الحفار التي خلفت وزارة مردم لانقاذ الموقف فما كان
ينبغي في رأينا أن يظل في الدست بعد اضطرارها الى الاستقالة لأنها لم تر امكاناً
لانقاذ شيء . ومن الغريب أنه بقي في الدست أيضاً بعد استقالة وزارة نصوحي
البخاري التي خلفت وزارة الحفار والتي أخفقت هي الاخرى فيما أخفقت فيه هذه
وبعد اعلان المندوب بصراحة عودته الى ممارسة السلطات الانتدابية واعتباره عهد
المعاهدة مؤجلاً ، وأخذ في اصدار المراسيم التشريعية والادارية التي كانت من
حق رئيس الجمهورية مدة غير قصيرة محاولاً تأليف وزارة جديدة . ولم يستقل الا
بعد اخفاقه في هذه المحاولة .

ونحن لانشك في حسن قصد هاشم الاناسي وقوة مبادئه الوطنية والقومية ،
وكون نصرته قائماً على اجتهاد انقاذ الموقف وتمثيل حق البلاد الشرعي بقدر ما يمكن
غير ان جميع البوادر كانت شاهدة على سوء النية وكانت كافية لاقتناعه ان هذا
أصبح عبثاً ولا سيما انه لم تبد حركة نضالية قوية ومحملة الدوام كرد فعل للبغي
والنكث مما يمكن معه تبرير البقاء وتمثيل البلاد وحققها الشرعي ، وانه الاكرم له
وللمبادئ النضالية التي كان يمثلها أن ينسحب في وقت يكون لانسحابه فيه هذا
المعنى أقوى وأظهر . ولاريب في ان هذا الموقف كان متصلاً بنفس الاجتهاد الذي
اجتهده رجال الحكومة على ما أشرنا اليه آنفاً .

- ٧ -

النضال والاجباية والديمية

ولقد يكون هناك مجال للحديث عن صواب وخطأ استلام الهيئات التي تحمل
لواء النضال القومي مقاليد الحكم في الفترات الانتقالية والتجارب او الحلول
النصفية التي يكون المستعمر فيها ما يزال صاحب الكلمة والشأن . ويبدو أن هناك
نظريتين الاولى افضلية بقاء هذه الهيئات بعيدة عن الحكم الى أن يتوطد العهد
الجديد ويصبح في الامكان الطمأنينة اليه ، على ان يتولى الحكم أناس يمتون اليهم
من ذوي النيات الحسنة والسلوك القويم ، فيكونوا موجّهين بتوجيهها ، وبذلك
تظل قوى الامة النضالية متكاثفة ، وتظل الهيئات النضالية قوة موجهة للحكام
ومهددة للمستعمر ، وتظل هاتان الجبهتان متحسبتين في خطواتها وتصرفاتها، وتظل
الهيئة المناضلة بعيدة عن الدسائس المتنوعة التي تجدها مجالها الواسع في حالة استلام
هذه الهيئة تقاليد الحكم سواء من جانب المستعمرين أو من جانب عناصر الشعب ،
وبعيدة كذلك عن مواطن التهم بما يمكن أن يناله الحكام من جاه ونفوذ ومنفعة
مادية وبما قد يؤثر في نزاهتهم وسمعتهم وقوتهم النضالية والتوجيهية والشعبية . أما
الثانية فهي افضلية استلام الهيئة المناضلة لمقاييد الحكم لانها بوصفها راعية المبادئ
الوطنية وحاملة لواء الدعوة الى النضال في سبيل حقوق الامة والبلاد فلا يمكن

ان يكون من هو أصلح منها للسير في هذا المجال ، وأن الحكم هو مجال تحقيق تلك المبادئ وتوطيد هذه الحقوق ، وفيه وسائل كثيرة لتقوية روح الشعب وتشكيلاته وإصلاح جهاز الدولة وتخليصه من الروح الاستعمارية القديمة من حيث التشريعات والموظفين بما له أثر كبير في توطيد الحق والعدل وتحسين شؤون الشعب الاقتصادية والاجتماعية والصحية والثقافية .

وقد يكون لكل نظرية وجاقتها ، ولعل وجاهة النظرية الثانية تبدو أقوى لأنها تستند الى اصل بديهي وهو استلام الحكم من قبل الأصلح له والأقوى عليه . وهذه الوجاهة هي التي جعلتها الأكثر اتباعاً كما هو المتبادر . غير أن التجارب في سورية ومصر والعراق اثبتت انها لم تنته الى نجاح ، وان الافضل للحركة الوطنية وبقاء روح النضال قوية حية اتباع النظرية الأولى الى ان يتوطد العهد الجديد ويسير سيراً طبيعياً ، وبقاء الهيئة المناضلة بالمرصاد لكل انحراف يبدو من المستعمر أو ممن هم في دست الحكم . وقد يصح الموقف اذا لم تمسك الهيئة المناضلة التي تجنح الى سلوك الطريقة الأولى بكراسيها وأن تكون مستعدة للتخلي عنها والعودة الى النضال حالاً أو على الأقل الوقوف موقف اللاتعاون والعودة اليه حالما يبدو من المستعمر شذوذ وانحراف وبوادى نكث ودس ، ثم اذا اتخذت الحكم وسيلة الى تقوية الشعب وتشكيلاته وتهيئة وسائل النضال حيث يكون في هذا كسب مادي ومعنوي وإنذار مستمر للمستعمر ، ومن تحصيل الحاصل ان نقول إن هذه الافضلية تكون محتمة على الهيئات المناضلة أو من ينتسبون اليها في العهود الموهمة المزيفة ، وإن تورطهم في الايجابية في مثل هذه العهود يعود بالحسرة على حركة النضال والحماس الوطني ، وقد كان شيء من هذا في عهد حكومتي الداماد والشيخ تاج فانتج فتوراً وتحاذلاً في صفوف الكتلة الوطنية وبالتالي في الحركة الوطنية على ما ذكرناه في الفصل السابق . واذا كانت الحركة الايجابية في بعض الظروف ضرورية فإنها في مثل تلك العهود ضارة حتماً ، وإن على الذين يحملون أعباء القضايا الوطنية والمبادئ الوطنية والنضال الوطني أن يقدروا الضرورات بقدرها من جهة وأن يتجنبوا التورط من جهة أخرى ، ولا سيما ان ضعف النية القومية والسياسية كثيراً ما يفتح الباب في الهيئات المناضلة لأفاس ضعفاء في الاخلاق

منتهزين للفرص ذوي مآرب ومطامع ، وكثيراً ما يكون النورط في الايجابية والملاينة بتأثيرهم ، ويكون في ذلك ما فيه من القضاء على روح النضال فيها وفي الشعب الذي وثق بها .

- ٨ -

حركة المعارضة في العهد الوطني

وبمناسبة ذكر معارضي الكتلة نقول ان المعارضة الحزبية البارزة للكتلة كانت تتمثل بالمرحوم الدكتور عبد الرحمن شهنيد وممن انضم اليه . وقد كان بين الدكتور وبين الاستقلايين الذين كان اكثر رجال الكتلة البارزين منهم تشاد يمتد شي . منه الى عهد فيصل وكثير منه الى ظروف الثورة السورية ، ثم كان يشتد حيناً ويكمن حيناً . ولما كان اضراب دمشق الطويل وثورتها عام ١٩٣٥ التي انتهت بدعوة رجال الكتلة الى المفاوضة نقم الدكتور على اهماله ، لأنه كان يرى لنفسه الحق في ان يكون صاحب الشأن في هذه الخطوة لما كان من سجنه في ارواد واشتراكه في الثورة وتسميته منذئذ باسم زعيمها . ونذكر اننا التقينا به في مصر في ظروف المفاوضة وسمعنا منها عتباً ، فلاحظنا له ان المهم هو النجاح وأن الواجب القومي يقضي بتأييد الكتلة اذا نجحت في الحصول على معاهدة صالحة ورأينا منه تطابقاً في هذه الملاحظة . ولما عقدت المعاهدة وتقلد رجال الكتلة مقاليد الحكم كان هو في مصر وكان غيره في مصر والأردن وفلسطين والصحراء والعراق مشردين باحكام عسكرية ، فاهتمت الوزارة لاستصدار عفو عن الجميع واشتركت الكتلة بحكومة وحزباً في حفلات الاستقبال الرائعة التي اقيمت للعائدين وفي مقدمتهم الدكتور . غير انه لم يلبث أن أخذ يبدي انتقاداته واعتراضاته على المعاهدة والادارة والتفت حوله جماعة من العائدين والمقيمين فبرزت تلك المعارضة .

ومع ان المعاهدة لم تكن تتضمن كل ما كانت تصبو سوريا اليه وان فيها ثغرات جوهرية على ما ذكرناه سابقاً فقد قيل فيما قيل ان منشأ المعارضة يرجع من

جهة الى ما كان من تشاد ومغاضبة بينه وبين الاستقلاليين ومن جهة الى سبب نفسي في من تأثير ما اعتبره اهمالا لشخصه سواء في سياق المفاوضات او في سياق نشوء العهد الجديد ، وإن الذين التفوا حوله انساقوا بنفس الاسباب وان المعارضة قد قامت للتهديم والتثريب أكثر منها للحرص على المصلحة القومية العليا . وقد بدا شيء من الصحة في ما قيل في مواقف ومظاهر عديدة بالاضافة إلى أن من الذين اندمجوا في المعارضة من اندمج في العهود الايجابية المزيفة .

ولقد كان لهذه المعارضة شيء من الطنين، وكان لها بعض التأثير في الأوساط الناقمة أولا وفي أوساط الكتلة ووزارتها ثانياً جعل هذه تقف منها موقف الناقم المحقق؛ وكان هذا الموقف بما قوى ذلك الطنين، ولم تلبث المعارضة أن ظهرت باسم الحياة الشعبية وأن انضم اليها بعض النواب الذين انشقوا من الكتلة الوطنية وصار لها بعض الصحف التي تناصرها وتنطق باسمها، غير أن من الحق أن يقال إن هذه المعارضة لم تكن ذات قوة ذاتية وشعبية ولم تكن من السعة ما يجعلها حزباً مزاحماً للكتلة يترشح ليحل محلها في الحركة الوطنية أو في حمل أعباء الدولة . وأقوى ظروف بروزها كان حينما تأزمت الأمور بين وزارة الكتلة والفرنسيين وبدرت من هؤلاء بوادر النكث والتراجع وضعف مركز الوزارة وأربد الافق في وجهها، فحينئذ ارتفع صوت هذه المعارضة قوياً واشتدت حركاتها وكان ما كان من مظاهرات بدت فيها يدها .

وبما يسجل أن هذه المعارضة لم تلبث أن هدأت بعد استقالة وزارة الكتلة ، ولم يلبث الدكتور شبنندر أن فاجأ الناس برحلة عاجلة إلى مصر في حين أخذت الافكار تغلي والجو يندر بالانفجار والجيش يحتل المدينة ويقوم بحركة الاعتقال الواسعة والكتلة الوطنية تقف موقف المحذور الذي فقد قوته النضالية فكان الأمر غريباً حقاً . لأن المعارضة كانت ضد المعاهدة وضد الكتلة التي قبلت بها وسارت في سبيل تطبيقها وضد ظروف هذا التطبيق من قبل الفرنسيين والكتلوليين معاً، وكان شعارها النضال في سبيل معاهدة أفضل تناسب مع تضيقات البلاد وتضمن جميع حقوقها وأمانيتها وتخلو من الثغرات الموجودة في هذه المعاهدة . والتي كانوا يعدونها في نشراتهم . فكان المنطق يقضي ان تتقدم المعارضة وعلى رأسها زعيمها الذي كان قطب رحاها لسد الفراغ الذي خلا من الكتلة التي انسحبت من

الحكومة وضعفت في الميدان الشعبي النضالي، وتنزل الى الميدان الذي تهباً للنضال وتستجيب للأفكار الهائجة والنفوس الثائرة وتستغلها وتقودها . ولقد كانت مفاجأة الدكتور بوحلته شديدة الوقع حتى على أنصاره الذين حاروا بأي وجه يواجهون الناس ، وأي موقف يقفونه من الطرف الذي قام والذي ادعوا أنه نتيجة لمعارضتهم ، حتى لقد سمعت من أحد كبارهم نقداً شديداً ولمست فيه شعور الجروح في كرامته حينما أخذ يقسم لي أشد الأقسام بأنه لن يكلم الدكتور ولن يقب وإياه في موقف واحد وجبهة متحدة، لأن رحلته كانت خذلاناً لمبدأ المعارضة النزيهة وفراواً من ميدان النضال الذي دعت اليه وحملت على الكتلة لضعفها فيه ، وإعلاناً بأن كل القصد هو شفاء غل شخصي تم بسقوط الكتلة ووزارتها وكفى الله المؤمنين القتال (١).

وبما يسجل أيضاً والشيء بالشيء يذكر أن هذه المعارضة قد كانت قائمة بزعيمها فلما اغتيل تضاءلت حتى كادت تتبخر في الظروف العادية، ولقد نشط فلولها بعض النشاط وحاولوا أن يبرزوا مرتين بعد اغتياله . غير أن هاتين المرتين كانتا في ظروف غير عادية أو على الاصح في ظروف مؤيدة بالافرنسيين وما استهدفه هؤلاء من مطاردة رجال الكتلة وإقصائهم . وقد كانت المرة الاولى في عهد مجلس المديرين الذي أقامه المندوب الافرنسي بعد سحب المعاهدة وسقوط العهد الوطني وفي ظروف اغتيال الزعيم ومحكمة المتهمين الذين أدخل بينهم رجال الكتلة البارزون . وأما المرة الثانية ففي عهد الغزوة الانكليزية - الديغولية وفي ظروف محاولة الافرنسيين توطيد نفوذهم وسلطانهم من جديد - لي سورية، فان هؤلاء لم يقبلوا شروط الكتلة للعودة الى الحكم وهي عودة الوضع الشرعي الدستوري المعطل قبيل الحرب فاستحضروا الشيخ تاج الدين الحسني الذي كان الامعاء مستحكما بينه وبين الكتلة منذ حركات عام ١٩٣٣ وما بعدها والذي كان منزويًا في فرنسه منذ قيام العهد الوطني، وعينوه رئيساً للجمهورية، وعاضدوه فألف وزارته برئاسة حسن الحكيم أحد أركان المعارضة وعضوية بعض بارزينا . وهذا وذلك منسجمان مع ما قلناه من ضعف قوة هذه المعارضة الذاتية والشعبية .

١ - كل هذا فعوى كلام المعارض الكبير

ولقد جاء الدليل على هذا حاسماً حينما رأى المحتلون في العهد الجديد من مصلحتهم التقرب الى أهل البلاد تدليلاً على حسن نواياهم ونبل اهدافهم الحربية فأعلنوا عزمهم على إعادة الحياة الشرعية الدستورية واحترام حرية الامة في الانتخابات النيابية، فلم تستطع هذه المعارضة ان تلعب اي دور أو يكون لها أي شأن ولم ينجح أحد من مرشحيها على كثرتهم، واكنسح الكتوبون الميدان بزعامة شكري القوتلي واستلموا مقاليد الحكم في آب عام ١٩٤٣، مع التنبيه على أن الكتلة الوطنية لم تكن قائمة رسمياً في ظروف هذه الانتخابات حيث كان نشاطها كهيئة متضامة قد توقف أثناء الحرب كما أن الهيئة الشعبية التي كانت المعارضة قد تجمعت فيها في العهد الوطني أيضاً قد انحلت قبل هذه الانتخابات، واشتوك الناس في الانتخابات دون ما تكتل حزبي رسمي، وكان شكري القوتلي الذي تزعم حركة الدور الجديد يبشر بالوحدة الوطنية وعدم الحزبية، ومعظم الذين فازوا في الانتخابات كانوا ممن رشحهم أو وافق على ترشيحهم سواء من رجال الكتلة أو المستقلين .

الفصل الثالث

العهد الانتدابي الثاني

١٩٣٩ - ١٩٤٣

- ١ -

الارهاب بعد سحب المعاهدة

وكما فعل الافرنسيون عقب انهيار عهد فيصل فعلوا تقريباً عقب انهدام العهد الوطني دون أن يكون للعشرين عاما التي مرت بين العهدين اي تأثير في ذهنيتهم . فمن جهة نشروا الارهاب في جو سورية واصاتوا السيف واخذوا يتعقبون من ظنوا فيهم القدرة على الحركة النضالية فاعتقلوا فريقا وشردوا فريقا آخر من رجال الوطنية وشبابها ، ومن جهة اقاموا أداة حكومية منفذة لمشيئتهم باسم مجلس المديرين ووضعوا على رأسها بهيج الخطيب الذي له صلة وثيقة بهم ، ومن جهة اعلنوا وقف الدستور والمجلس النيابي وتشكيلات رئاسة الجمهورية والوزارة وحقوقها ، فعاد بذلك نظام الانتداب وعهده بكل سعته وبشاعتها . ولم تلبث الحرب العالمية الثانية أن نشبت فكان لهم منها فرصة لتشديد ضغطهم وتضييقهم وإرهابهم واستغلالهم ومكائدهم .

وقد احوالوا نبيه العظمة ورفاقه الى المحاكمة العسكرية وضموا اليهم اسماء كثيرين من رجال الحركة وشبابها الذين تشردوا بالمطاردة ووجهوا اليهم نهبا خيالية ومضحكة (١) تدل على ما يبيحه المستعمر لنفسه في سبيل القمع والارهاب من الوسائل وحكموا عليهم بالسجن مدداً متنوعة منها ما هو طويل جداً . وفي اثناء ذلك انكشفت مؤامرة كان يدبرها بعض المتحمسين لاغتتيال بهيج

١ - من جملة التهم صلة نبيه العظمة وأخيه عادل بهتلر وتلقى الاول من هتلر شكاً بتلاتين الف جنيه ذهباً دون أن ينجلوا من سخافة الكلام فضلا عن التهمة وكيف يمكن ان يكون مثل هذا المبلغ شكاً

الخطيب رئيس مجلس المديون انتقاماً لقيامه على انقراض العهد الوطني واندماجه مع الافرنسيين فتجددت حركة الاعتقالات، وادخل في نطاقها بعض رجال الكتلة والشباب . وقد كانت القضية في يد القضاء السوري فلما رأوا هذا القضاء غير هاضم ما يراد تهضيمه له من التلفيقات والاحكام سجنوها منه واحالوها على المحكمة العسكرية ومزجوا هذه الحادثة بينهم اخرى بعيدة عنها كل البعد إيغالا في الارهاب والارهاق، وحكموهم بمدد متنوعة ايضاً منها ما هو طويل جداً . ومن عجيب مفارقاتهم انهم ادخلوا نبيه العظمة وبعض رفاقه المحكومين في نطاق هذه القضية وحاكموهم محكمة ثانية وحكموا عليهم احكاماً جديدة ضوعفت بها مدد سجنهم .

- ٢ -

الصف الافرنسي أثناء الحرب

ولقد مر بسوريا سنة وبضعة شهور قاست خلالها من الشدائد والارهاق الوانا ، وكانت الجاسوسية والمحاكمات العسكرية والمطاردات والاعتقالات تزعج الناس في كل حركة من حركاتهم ولحظة من اوقاتهم اشد الازعاج ، وتشردهم تحت كل كوكب .

وقد استغل الموظفون الافرنسيون الفرصة وخاصة فرصة التموين ومراقبة الاخراجات والادخالات ولوازم الجيش ومعاملات الجمرك ابشع استغلال ، حتى لقد كانت اعمال النهب وشذوذ الاجراءات عن كل معنى منطقي في سياقها بارزة تزيد في وجع الموقف وحرارته ، وبالغة حدّاً بعيداً في البشاعة والاستهتار . ولقد كان موظفو التموين (الاعاشة) يضعون ايديهم على ما في السوق من السلع الرائجة بحجة حاجة الجيش او الانتاج الحربي بضمن نجس بقدرونه ويدفعونه لاصحابه من العملة الورقية التي ضوعفت اضعافاً مضاعفة ضاعفت من هم الناس وقلقهم لثرواتهم الذهبية والعينية التي تؤخذ من ايديهم مقابلها ، وقد لا يكون للسلع صلة بمحاجات الجيش والصناعات الحربية ، ثم لا يلبثون في الايام التالية ان يعرضوها للبيع بأيدي السماسرة بأسعار عالية !! وكانت دائرة التموين تقطع سعراً معيناً للغلات وتصادرها

من البيادر والمخازن وتدفع ثمنها حسب هذا السعر في حين يكون سعرها في السوق ضعفاً وضعفين، وكثيراً ما كانت الكميات المصادرة أكثر من حاجة الجيش، وكان الناس يلمسون تسرب شيء منها إلى السوق لتباع بالأسعار المرتفعة كما كانوا يلمسون شحنها إلى فلسطين لتباع بأسعار عالية فيها. ولقد حدث كثيراً أن يذهب ضباط افرنسيون ومعهم سيارات شحن إلى حوران وغيرها فيصادروا كميات من الغلات مقابل وصولات وبيانات يظهر زيفها وتزويرها حينما يراجع أصحاب الغلات دوائر التموين والجيش! ولم يكن في إمكان تاجر مستورد أو مصدر الحصول على رخصة توريد أو تصدير للسلع المسموح بها إلا بعد دفع عمولات مضاعفة منها ما هو رسمي لصندوق ما كان يسمى بالمصالح المشتركة والذي كان ينفق منه على جيوش الموظفين الافرنسيين والجيوش المسلحة، ومنها ما كان يذهب إلى جيوب المشرفين على الدائرة، وكان نصيب كل معترض أو شاك الحرمان والعثرات والعراقيل والاعتقال أحياناً. وكان هذا يجري بدون ما تستر كأنما هو امر عادي. ولقد كان في لوائح الجمارك مواد بشأن مراقبة المهربات والمحظورات ومكافأة المراقبين استغلها الموظفون الافرنسيون استغلالاً واسعاً وبشعاً منتهزين كذلك جو الحرب ورهبتها، وكان يقع في هذا السيل كوارث ونكبات عظيمة، وكانت هذه الدائرة دائرة جاسوسية من جهة ودائرة تعذيب تفتيشي من جهة أخرى. وكانت في جملة ما تفعله مصادرة الذهب الذي يحمله الداخلون إلى سوريا بحجة أنه مال مهرب ووضع غرامات باهظة على ناقله فضلاً عن حرمانه منه، وبلغ الأمر إلى كبس البيوت وتحري حسابات الناس ودفاترم ومصادرة ما يوجد من الذهب لديهم بحجة أنه ادخل مهرباً، ووضع الغرامات الباهظة وسوق المتهمين إلى السجن رهناً على دفع هذه الغرامات. وقد سمعنا قصصاً عديدة عن جميع هذا من اصحابها وخاصة في صدد تحكم موظفي الجمارك وما يسومونه الناس من خسف وتعذيب بقصد تأمين مكافآت باهظة لهم هي ادخل في باب النهب والسلب بالاكراه منها في باب المكافآت القانونية.

ولقد نضاعف شر الجاسوسية اثناء الحرب واصبحت هي الاخرى وسيلة سلب ونهب حيث كان الجواسيس يلاحقون الاشخاص ويهددونهم بالوشايات ويبتزرون منهم المال ويوقعون بمن لا يستجيب اليهم بعلم وتحريض من رؤسائهم الافرنسيين. وتجاوز ضغط الافرنسيين نطاق السوريين إلى الفلسطينيين الذين كانوا في دمشق بمناسبة ثورة فلسطين سني ١٩٣٧ - ١٩٣٩ فأخذوا يضيقون عليهم الحناق ويعتقلونهم

الكرب بعد ان تنفس الناس الصعداء حيث رأوا في ذلك الانهيار فاتحة للفرج ، ثم عادوا عن موقفها لما بدأ من ضعف حركة المناوأة الدبقولية في بادىء الامر ولعدم مساس الهدنة بين الالمان وفرنسا فيشي بموقف فرنسا من سوريا ولبنان . وقد بدأ ان يوتلقى من فيشي تعليمات في صدد التنفيذ والتفريغ في سوريا ولبنان تمثيلاً مع حالة الرهن والانهيار التي ألمت بفرنسا ، فكانت اتصالات بينه وبين بعض رجال سوريا أسفرت عن اتفاق على اجتماع ينعقد بينه وبين شكري القوتلي الذي خرج سلباً نوعاً ما من التحطيم المعنوي الذي أصاب زملاءه من رجال العهد الوطني على ما اشرنا اليه قبل في شتوره الواقعة في منتصف طريق دمشق - بيروت للبحث في الموقف . ولكن الجو تعكر فجأة بمحادثات اغتيال الدكتور شهيندر التي وقعت في الأسبوع الاول من شهر آب عام ١٩٤٠ وفي نفس اليوم المعين لذلك الاجتماع ، فاستغلها الموظفون الافرنسيون في دمشق اشد الاستغلال وتآمر وامع اداتهم الحكومية او بالاصح مع رئيسها ضد البارزين من رجال الكتلة ، فوجهت الى جميل مردم وشكري القوتلي وسعد الله الجابري ولطفي الحفار تهمة التآمر والاغتيال ، وكان من النتائج المباشرة لذلك الغاء الاجتماع المذكور . وبما لاشك فيه ان الموظفين الافرنسيين في دمشق وشركاءهم من كبار موظفي المندوبية في بيروت كانوا على علم بما جرى من اتصالات وبالاتحاد المتفق عليه مما يجعل مسارعهم الى تهمة رجال الكتلة بالحادثة او على الاقل تقوية خاطرها الذي يمكن ان يكون قد خطر لأولياء الشهنذر بسبب التشاد والعداء بين الفريقين مقصودة لشلهم عن الحركة والحيلولة دون تبدل العهد القائم او تأخير مدة ماحق لا ينتهي عهد النفوذ والمجد والمكاسب الذي كانوا يستمتعون به والذي كانت فرصة الحرب اعظم وسيلة لاتساع تمتعهم به ، والذي كان من دوافع مؤامراتهم على العهد الوطني ودسهم عليه وإحباطه نهائياً .

ولقد شغلوا دمشق بمرمتها هذه الحادثة وتحقيقاتها ومحاكماتها حتى جاء وقت ينذر بوقوع فتنة هوجاء بين الناس الذين انقسموا الى مفسكرين ، وكانت احابهم في التخريض والمؤامرة على جماعة الكتلة وانصارها ظاهرة حتى بلغ عددهم الذين اغتفلوهم منهم نحو مئة شخص . وانطلقت السنة الضخمة المسبورة او المعارضة للكتلة تشتم رجال الكتلة وتنعتهم بالقتلة والمتآمرين . ولم يفتفرج الازمة نوعاً ما الا باعلان المندوب الجديد الجنرال دانز الحياد والنزاهة التامة في

بالعشرات مع انهم كانوا يعضون العين عنهم جواباً انتقامياً لما كان من أغراض الانكليز عن حركات مجاهدي سوريا ومنظمي امورهم ، وكان تأزم الحالة السياسية الأوروبية مما ألزم فرنسا الاستعمارية الاستجابة الى تأثير الانكليز وضغطهم في هذا الصدد . وشجع على ذلك انهدام العهد الوطني وما كان من جو الأرهاب والشدة الذي بثه الافرنسيون في سوريا ، حيث اوحى لهم هذا ان يكون الأرهاب شاملاً لكل مناضل ولكل حركة نضالية ولو لم تكن موجهة اليهم . وقد كان مؤلف الكتاب هدفاً رئيسياً لهذا الضغط الذي بدأ منذ تأزمت الامور في اوروبا فاعتقلوه مع بعض الفلسطينيين ، وحاكمهم بعد إعلان الحرب في المحكمة العسكرية وحكموهم بالسجن . وقد شهدنا ونحن في السجن وقائع وحوادث يقشع منها البدن وتشتت منها النفس من ضرب وتعذيب في سياق التحقيق والتمهيد للمحاكمات العسكرية مجردة من كل رحمة ورافة . ولم يسلم أي شخص وقع في يد الدرك الافرنسي من ضرب او إهانة الا نادراً جداً وكنت انا من هذا النادر . وقد كانوا يضربون المتهم حتى يدموا جسداه واحياناً حتى يعطلوا بعض اعضائه . وكثيراً ما كان المعتذون يذهبون عن وعيهم وكان الخوف من تكرار العذاب يسوقهم الى الاعتراف بكل ما عليه المحققون الافرنسيون ومن غريب المفارقات ان احد المتهمين حينما رقف امام المستنطق العسكري قال له ان اعترافاتي كانت نتيجة الضرب فصرخ في وجهه وصفعه قائلاً ان الافرنسيين لا يضربون ! وكانت المحاكم العسكرية تحكم بتقارير الجواسيس ومذكرات الدرك الافرنسي وترفض أي اعتراض وتأبى جلب اصحاب التقارير والمذكرات للمناقشة والشهادة العلنية .

- ٣ -

الحالة بعد انهيار فرنسا

ولما انهارت فرنسا في صيف عام ١٩٤٠ حاول القائد الافرنسي العام بالاتفاق مع المندوب السامي بيو ان يقف موقف المناوئ لفيشي استجابة لدعوة الجنرال ديغول الذين اخذ يدعو الى المقاومة باسم فرنسا الحرة من لندن بتشجيع الانكليز وتعريضهم ، واحتفاظاً بالسيطرة على بلاد الشام ، واعلنت بريطانيا تأييدها لها واستعدادها لمساعدتها ومدتها بالقوى المناضلة فهلعت القلوب من احتمال استمرار

القضية . وقد كانت فيشي سحبت يـو نتيجة للشكايات والمـساعي المبذولة وأرسلت هذا ليحل محله مزوداً بتعليقات المـسايـرة والتنفيـس .

وقد جرت المحاكمة كذلك فعلاً فظهرت في قاعة المحكمة آثار التزوير والتحرير والتآمر والتحرير ، وبرى رجال الكتلة من التهمة وانتهى الأمر عند حده الطبيعي حيث صدر الحكم بالاعدام ضد الشبان الثلاثة الذين اشتروا في الجريمة .

ونقد قيل في سياق هذه الحادثة إن مؤامرة الشبان كانت تتناول غير الشهبندر جميل مردم وبهيجل الخطيب ، باعتبار أن الاثنين الأولين ضربا قضية الوطن بتنازعها وشقاقها ، وأن الثالث تآمر مع السلطات الفرنسية على ما كان منها من تصرفات باغية وغدر قبيل الحرب وفي أثناءها .

ولقد كان فيما كان من ظروف الحادثة أن الموظفين الفرنسيين خشوا أن يفلت رجال الكتلة من التهمة بأساليب القضاء المدني فأوعزوا لمجلس المديرين بقرار سحب قضيتها من المحاكم المدنية وإحالتها على المجلس العدلي الشبيه بالمجلس العسكري أو العرفي وب رئاسة قاض فرنسي وبإدارة متفق عدلي عسكري ، وقد أصدر هذا قراراً بمحاكمة جميل وسعد الله ولطفي ومنع محاكمة شكري . فلم يسع الثلاثة إلا مغادرة سوريا إلى العراق ، وكان هذا هو المقصود على ما اعتقده المراقبون .

ولقد تولى شكري أمر الدفاع عن زملائه وبرز كزعيم للكتلة والحركة الوطنية ورجل ساعتها وأخذ رجالها وانصارها يلتفون حوله فدخل الفرنسيون الندم على منع محاكمته وعدم تشريده هو الآخر فلم يتورعوا عن إحاطته بجو مزعج من المراقبة والتروص من جهة والانعضاء عن ما بدا من الجراءة على بيته ، والتفكير في وسيلة تقصيه عن الميدان من جهة أخرى . ولقد كادوا يجدون الوسيلة ، فقد كان بعض ضباط وموظفي الجيش الفرنسي اتهموا بسرقة وبيع السلاح من مخازن الجيش سنة ١٩٣٦ وكان ذكر بعض أسماء الوطنيين كمشتريين للسلاح للشـورة الفلسطينية ومن جملتهم شكري القوتلي ، ثم أقفل الحديث لأنه لم يكن مستنداً إلى دلائل راهنة من جهة ، وكان العهد الوطني الذي كان شكري القوتلي فيه وزيراً قد قام من جهة أخرى . فاستدعت دائرة الدرك الفرنسي بعض المحكومين الذين كانوا من موظفي الجيش الفرنسي بعد صدور قرار منع محاكمة شكري وبرزه

وفاتحتهم في الأمر وحقت معهم في امر صلة شكري بقضية السلاح ولوحت لهم ببعض الآمال . وقد فهمنا هذا من احدثهم شفاها حينما كنا في السجن واخبرنا به شكري ، وهذا بدوره اخبر به المندوب فأصدر امره بعدم نبش الماضي واختلاق الأحداث والوسائل ضده .

ولقد اعترف القاتل احمد عصاصة ورغيقاه في قاعة المحكمة بالجرم وقرروا ان الباعث عليها هو العاطفة الدينية والوطنية معاً ، وخاصة الأولى لأنهم علموا ان للشهبندر آراء منحرفة في صدد الدين وتقاليده . ونفوا اي علاقة مباشرة وغير مباشرة لجبل ولطفي وسعد الله وغيرهم من رجالهم بالحدث ، وكانوا في انثناء التحقيق وقعوا على اعترافات منافية لهذا الاعتراف والنفي فلما سئلوا عن ذلك قالوا ان هذه الاعترافات أخذت منهم بالضغط والاكرام حيناً وبالاغراء حيناً وإن بهيج الخطيب وموظفي الأمن الافرنسيين هم الذين استعملوا معهم هذه الأساليب . وكان سبب الاعتراف أن المحكمة استدعت الشيخ العكثاني المغربي الذي كان القاتل من مريديه ، وبعد أن ادلى بمعلوماته عن اخلاق مريده وروحه المتدنية طلب اليه ان ينصحه ورفاقه بالاعتراف بالحقيقة كاملة ، ففعل بأسلوب بليغ واعلن فيصل الشهبندر استعدادده للعفو اذا اعترفوا بالحقيقة والباعث وساد المحكمة جو رهيب ثم صرخ احمد بصوت تحنة، عبرات الحشوع والاستجابة للنصيحة فاعترف كما قلنا فكان مشهد رائع ورهيب أثر في جو المحكمة وقضاها وحاضريها تأثيراً بليغاً وكان فيه القول الفصل ، ولا سيما قد كانت اصابع التزوير والتصنيع والتآمر فضحت لدى استماع الشهادات .

- ٤ -

تجرد نشاط الحركة الوطنية وأثره

وحينما خف التوتر في حادثة الشهبندر بعد إعلان المندوب السامي الحياد والنزاهة في قضيتها أخذ شكري القوتلي يقوم بحملة في سبيل اطلاق المحكومين السياميين والكف عن مطاردة الناس ونشر يدهم كبده للحركة الوطنية من جديد ، فكان

من نتيجة هذه الحملة التي أئده فيها رجال الحركة الوطنية في دمشق والمدن الأخرى أن أطلق سراح المحكومين وخفف من شدة المطاردة والتجسس، وكنت من جملة من أطلق سراحهم في أول تشرين الثاني من عام ١٩٤٠

ولقد كان إطلاق سراح المحكومين والكف عن المطاردين وسيلة لنشاط المهمم والعواطف الوطنية فلمسنا روح دمشق الجياشة منذ غداة إطلاقنا وانطلقت الألسنة في صدد المطالب القومية، وأخذت تقوم حملة ضد الأداة الحكومية القائنة وضد تصرفات إدارة التموين التي ذكرنا عنها بعض الشيء والتي حاول الأفرنسيون الاستمرار فيها بعد انهيار دولتهم أيضاً دون ارعواء واعتبار. ولقد تشجع أصحاب السلع في دمشق وتضامنوا على الوقوف في وجوههم حتى إنهم نجحوا أكثر من مرة بعصيتهم ليردوا حملات المصادرة التي اعتاد هؤلاء الموظفون أن يقوموا بها في جو الحرب وإرهابها. وأخذ الموقف يعود إلى التأزم ومرجل الحماس يعود إلى الغليان، وأعلن إضراب عام في دمشق امتد امداً غير قصير، وأذاع شكري القوتلي بياناً قوياً عن موقف البلاد وقضيته وحقوقها. وكان فيما كان الكلام يجري فيه واجب فرنسا بالوقوف موقفاً نبيلاً وهي في محنة مريرة وأمام مصير مجهول استدراكاً لما كان منها من مواقف غادرة باغية؛ واعتباراً بيد الله الجبار المنتقم فيها.

ولقد كان الموقف في الحق عجباً متناقضاً. ففرنسا منهارة خاضعة لجباية الألمان تذوق كأس الاحتلال الكريه ويقف رجالها وقفة المهين على عتبة قواد احتلالها بينما هي في سورية تمثل دور المحتل الغشوم والمتسلط الجبار. وبما أذكره أنه قام في السجن مرة بعض حركات فردية وجاء ضباط الدرك الأفرنسيون يظهرون شراستهم وغطرسهم بسبيل تأديب المتمردين فصرخ بعض هؤلاء فيهم معييراً بالموقف الذي هم فيه قائلاً لهم دون مبالاة بما يناله: إذا كانت لكم كرامة وتودون المحافظة عليها وإظهار زهوكم وعظمتكم فليس السوريون محل ذلك الآن وإنما هم الألمان في وطنكم، وإن موقفكم من هذا الموقف ونحن أمة صغيرة عزلاء بعد

هو انكم أمام خصم تعدون بالنسبة اليه شيئاً مذكوراً هو عار الأبد عليكم وعلى فرنسا (١) .
ولقد كان رجال فرنسا في فيشي يدركون على ما بدا ما في الموقف من تناقض
وما هم عليه من عجز، ولكنهم كانوا يخشون أن يكون في أي خطوة صادقة
يخطونها تقييماً بما في أيديهم وإضعافاً لهيبتهم المتزعزعة ونفضاً لليد من المطامع
الاستعمارية والمنافع الاستغلالية لم يكونوا ليهضموه بالرغم مما حل فيهم . وإضاعة
لورقة قد تفيدهم في المساومة في ظروف الدنيا المنهجمة . ومع ذلك فإن الموقف
اضطربهم إلى الاستجابة للاصوات المتعالية والاحتجاجات المتوالية فعمد المندوب
إلى حركة تطهير وتحقيق في حق الموظفين الافرنسيين أثقل في سياقها بعض كبار
موظفي المندوبية واعتقل بعضهم وأحيل على المعاش بعضهم، وذاع في ما ذاع خبر
وجود ثروات طائلة من سلع وتحف وسجاد وسبائك ذهبية عند بعض هؤلاء الموظفين
حصلوا عليها بالطرق التي ذكرناها والتستمر على من كان يقوم بالسلب والنهب من
الموظفين المختصين ومشاركتهم فيها ! وقد اعتذر عن القيام بأي عمل حاسم وأساسي
في صدد القضية الوطنية، وإستعداده لمعالجة الموقف معالجة موقنة، وكان من نتيجة
ذلك أن نجت الأداة الحكومية البغيضة التي يرأسها بهيج الخطيب، وأن أعيد تشكيل
مجلس الوزارة برئاسة خالد العظم . ومع أن الخطوة كانت نصفية فإنها قوبلت بشيء

١ - وفي هذا المعنى قال الشاعر البليغ بدوي الجبل في قصيدة له جدير بالتسجيل :

يا سامر الحمي هل تغنيك شكوانا	رق الحديد وما رقوا لبوانا
قل للألى استعدوا الدنيا بسيفهم	من قسم الناس أحراراً وعبداً
إني لأنتم بالجبار بصرعه	طاغ وبرهقه ظلاً وطفاناً
لعله تبث الأحزان رحمة	فيصبح الوحش في برديه انساناً
سمعت باريس تشكو زهو فالحها	هلا تذكرت يا باريس شكوانا
والجبل في المسجد المحزون جائلة	على المصلين أشباحاً وفتياناً
والآمين أفاقوا والقصور لظي	تهوي بها النار بنيراناً فتياناً
تلك الفضائع قد سميتها ظفراً	هلا تكافأ يوم الروح سبفاناً
إذا انفجرت من المدوان باكية	فطالما سمنا بتيماً وعدواناً
عشرين عاماً شربنا الكأس مترعة	من الأذى فتلى صرفها الانا
ما للطواغيت في باريس قد مسخوا	على الأرائك خداماً وأعواناً
الله أكبر هذا الكون أجمعه	لله ! لا لك تدبيراً وسلطاناً
ضغينة تنزى في جوانحنا	ما كان أغناكم عنها وأغناناً

من الارتياح لأنها أزالَت كابوس تلك الأداة وخففت من سوء تصرفات الموظفين
الفرنسيين؛ وحل الناس إضرابهم وصاروا يتطلعون بنفس مطمئنة مرتقبة إلى
قرب يوم الفرج الأكبر، هذا مع التنبيه إلى أن شكري القونلي أذاع بياناً آخر
أشار فيه إلى أن سوريا لا تكفي بالعلاج الموقت وإنما تطالب بحقوقها الشرعية،
ودعاهم ذلك الناس إلى حل الإضراب واعداء بالاستمرار مع إخوانه في العمل على
الحصول على تلك الحقوق .

ومن طريف ما كان ويجب تسجيله من تصرفات الفرنسيين العجيبة وخاصة
في أمر التموين أن المندوب السامي بناء على ما تعالى من اصوات الشكوى
والتذمر من إدارة التموين الفرنسية أن تسلم إلى الوزارة، فلما أرادت هذه أن
تسلم مخازن الحبوب التي كان يصنع منها الخبز وبيع للناس بالاسعار المحددة
وجدتها فارغة ورأت أنها لا تستطيع والحالة كذلك أن تحمل عبء تدبير الخبز
ولاسيما لبس في يدها قوة مسلحة ولا هيبة موطدة، فرفضت الاستلام وطلبت بقاء
إدارة الميرة بيد الفرنسيين تفادياً من كارثة مجاعة تحل في الناس، وراح الناس
يتساءلون عبثاً عن مصير اكداس الحبوب التي صدرتها هذه الإدارة من غلات
البلاد باسم الاعاشة والتموين !

- ٥ -

الغزوة الانكليزية الديغولية وسيرها وأثرها

على أن الجور السياسي ما لبث أن تلبد بعد هذه الخطوة التنفيسية بما كان من
الاحتلال الانكليزي - الديغولي . فمنذ عقد الهدنة بين فرنسا والمانيا أخذت
الدعابات الانكليزية تلبث في سوريا ولبنان منذرة باحتلال الانكليز ، وأخذت
هذه الدعاية تبدر خاصة في صفوف الفرنسيين وبنوع خاص ضباطهم عن طريق
الدعوة الديغولية ، وأخذ الناس يلمسون في صفوف الفرنسيين اختلافات
ومنازعات متنوعة الصور والأساليب لانقسامهم إلى فيشيين « نسبة إلى فيشي الذي
اتخذها المارشال بتان رئيس الدولة الجديد الذي تهاون مع الالمان مركزاً ،
وديغوليين . هذا من جهة ومن جهة أخرى كانت الاصوات الانتقادية ترتفع من

الأوساط الانكليزية عازية للسلطات الافرنسية الفيشية في سوريا ولبنان تسهيلات لقوى المحور وطياراته ، ومبديّة مخاوفها من استيلاء المحور على البلدين ، ومطالبة بالوقوف موقف الجّد ، ومعددة ما يكون من استيلائه من أخطار وأضرار . ومنذئذ والناس يتلقون هذه الدعايات والاذاعات كمقدمات لاحتلال انكليزي في أول فرصة ممكنة حتى لقد كانت الشوائع تشيع عن موعد معين ؛ وكانت الطيارات الانكليزية تحلق من آن لآخر في سماء سوريا ولبنان مستكشفة مستطلعة مرهضة ، وأخذ بعض الضباط الافرنسيين يتسلمون الى شرق الأردن وفلسطين للانضمام الى القوى الانكليزية والديغولية . وقد جاء الجنرال كاترو وكان من رجال المندوبية الافرنسية ورئيس ضباط الاستخبارات في سورية ولبنان الذين كان لهم أفضع الادوار في حركة الفساد والدس والكيد كنائب للجنرال ديغول الى القدس واتخذها مركزاً لبث الدعاية وتهيئة الخطوة العملية في الفرصة المناسبة ، فقويت بمجيئه الدعاية وأخذ التسلل يزداد من سوريا ولبنان حتى صار شبه علني ، وحتى صار يفر بعض الضباط مع فصائل كاملة من الجيش الافرنسي أو المتطوعين كما فعل الكولونيل كوله مع فصيل من متطوعي الشركس ، وحتى اضطرت السلطات الافرنسية الى حركة تطهير ومطاردة فر بما سبقتها عدد غير قليل من الضباط ، وفر في من فر الكولونيل مدور قائد الدرك اللبناني حيث كان يبذل جهوده الكبيرة في تسهيل حركات الفرار . وقد اشتركت شرق الاردن في هذه الحركة ، وأخذت تجري الاتصالات بين أولي الشأن فيها وبعض رجالات وصحافيين في دمشق أملاً بأن يكون من ورائها تحقيق وحدة سوريا وتوسد عبد الله بن الحسين عرشها ؛ وظهرت آثار ذلك في بعض الصحف السورية التي كانت تنقل الأخبار وتنشر الارهاصات عن الحركات والخطوات المتوقعة بأساليب مختلفة .

فلما نشبت الحرب العراقية الانكليزية في مايس عام ١٩٤١ اشتدت الاصوات القائلة إن المحور يتخذ سوريا قاعدة لمساعدة حركة العراق وإن في سوريا ولبنان آلافاً من الألمان ، وقصفت طيارات الانكليز مطارات سوريا الشمالية فاعتقدنا ان القفزة الانكليزية قد قربت وانها منوطة بمصير الحركة العراقية ، وان كل ما يجري إنما هو بسبيل الدعاية والتهويل والتبرير ، ولا سيما ان دعوى وجود آلاف

الالمان ومئات الضباط والطيارات الالمانية غير صحيحة ، وكل ما كان من اموجود بعض مندوبين طليان والمان باسم لجنة الهدنة ومراقبتها ؛ وكانت مداخلتهم مع الجنرال دنز بتحفظ كبير كما كان هو نفسه يتحاشى هذا التدخل لئلا يكون حجة عليه بيد الانكليز ، وكان يحتج على ما يصدر من هؤلاء من دعاير ودعايات ونهم بصدد ذلك وينفيه المرة بعد المرة .

ولم يمض على انتهاء حركة العراق إلا اسبوع واحد حتى زحفت القوى الانكليزية والديغولية مع بعض طلائع او مفارز اردنية من الجنوب بتاريخ ٨ حزيران ١٩٤١ ، ثم انشطرت شطرين انجه احدهما نحو دمشق وثانيها نحو جبل عامل والساحل ، واخذت تقع الاشتباكات بينها وبين القوى الافرنسية الفيشية والفصائل السورية واللبنانية التي كانت تحت القيادة الافرنسية وهي المسماة بالجيش المحلية .

ولقد لقيت بعض المقاومة في الجبهتين ولم يتسن لها السير بسرعة كما كان مقدراً . وكان الجنرال داتز مشدداً في هذه المقاومة كما كان مندوبو المحور لا يفتأون يشدون همته ويشيرون حماسه فيها ؛ غير ان الدعايات اخذت تنبث في القوى المدافعة فتوئي اكملها في التثييط والتحول من جبهة الى جبهة . فقد كانت تقف في الواقع في وجه قوى افرنسية يقودها ضباط افرنسيون وقوى إنكليزية حليفة وصديقة ؛ ولم يكن من شأن فوز هذه القوى بما تريد ان يجعل القوى المدافعة تنحسر شيئاً مادياً او معنوياً . وهكذا اخذت القوى الغازية تتقدم وتستولي على البلاد تدريجياً ثم جاءت قوى ميكانيكية جديدة من جهات الصحراء واخذت تتوغل في الأنحاء الشمالية فتم نطاق التطويق . وقد دامت الحرب نحو ستة اسابيع اضطر الفيشيون بعدها الى طلب الهدنة فأجيبوا الى ذلك على اساس التخلي عن سوريا ولبنان للاحملة الجديدة ، واستتب الأمر كذلك في الاسبوع الرابع من تموز عام ١٩٤١ بشروط فيها كثير من التساهل . وقد احتوت فيما احتوته حرية الافرنسيين في مغادرة البلاد مع مالهم من متاع وبأيديهم من سلاح ، وبقاء من يود البقاء منهم عسكريين كانوا او مدنيين على مراتبهم ومرتباتهم بما استجاب له فريق كبير من النوعين منهم . وقد ابى الفيشيون ان يعترفوا بالديغولين كطرف ثان اثناء المفاوضات فأجيبوا الى طلبهم ، وجرت المفاوضة والتوقيع بينهم وبين القائد

الانكليزي . على انه كان بادياً ان الأمر سيكون في يد الديغوليين وان الانكليزي
إنما هم مساعدون ؛ بناء على الاصل المعترف به من ان سوريا ولبنان ضمن الانتداب
والنفوذ الافرنسي ، ومن ان الديغوليين إنما يمثلون فرنسا ومركزها في نظر
الانكليز ومصلحتهم الحربية . وقد غادر داتز وغيره من رجال فرنسا العسكريين
والمدنيين الذين لم يطلب لهم البقاء ميممين شطر فرنسا ، واراد داتز ان يسجل اسمه
في تاريخ نهب سوريا ولبنان في من نهبها من بني قومه فحمل معه ذهب البنك
السوري اللبناني الذي كان بعض الغطاء للنقد الورقي والذي كان يقدر بمئات ألوف
الجنيهات . .

ومن نقائص الافرنسيين التي كانت منهم أثناء هذه الحركة أن الفيشيين حاولوا
الانتفاع من فلول المجاهدين الفلسطينيين الذين كانوا في سوريا او أنوا من العراق
بعد الحركة الحربية العراقية في العمل على الحدود الفلسطينية لازعاج الانكليز ، فلم
ير هؤلاء في العرض ضمانه تبعث فيهم الطمأنينة والأمل فأبدوا استعدادهم للانضمام
الى حملة فوزي القاوقجي التي خرجت من بغداد الى الرطبة ثم اتجهت الى سوريا
حينما انتهت الحركة العراقية ونشبت الحركة السورية ، حيث كان الافرنسيون
أظهروا استعدادهم لمدها وتقويتها للانتفاع منها في حركة المقاومة فرفضوا كما انهم لم
يسيروا سيراً جاداً في الوفاء بوعدهم بعد حملة القاوقجي متحسبين عواقب ذلك مع
انهم ليسوا في وضع يبرر لهم هذا التحسب لأنهم امام عدو جديد مشترك ليس
من السهل تغلبهم عليه ولم يكن اشتداد قوة الحملة لبيضيرهم شيئاً . وكان الذين يودون
ذلك من رجال العرب الوطنيين يأملون ان يكون من الحملة اذا مدت وقويت قوة
عربية مستقلة قد يكون فيها بعض الأثر في الكفاح القومي العربي ، ولا سيما إن
احتمال عدم امتداد الحرب طويلاً وانتهائها باندحار بريطانيا من الشرق العربي كان
إذ ذاك قوياً وسائداً . ولكن الذي يتبادر أن سوء النية والروح الاستعمارية
المتأصلة في الافرنسيين منعهم من هضم قيام قوة عربية واحتمال انتفاع الحركة
العربية بها مهما كان أمرهم ومصيرهم . . .

وما يسجل في صدد هذه الحركة أن الفصائل السورية واللبنانية اضطرت الى
الحرب الى جانب القوى الفيشية وكانت توضع في الصفوف الأمامية لما كان يتحسب

من فرار افراد هذه القوى ومخامرهم ، وقد قتل وجرح من تلك الفصائل عدد كبير ، ومع ذلك لم ير الفيشيون أن يذكروا ذلك بكلمة ما جحوداً ولؤماً ، وظلوا يشيدون طيلة اسابيع الحركة بدماء فرنسا وضحاياها في سبيل الدفاع عن سوريا ولبنان ضد الغزاة !!

- ٦ -

نجد الجبوية الفرنسية

ولقد عكر نجاح الحملة الجديدة صفو سوريا وخيب أملها في خفة الكابوس الذي كان يحتم على صدور أهلها بأنهم يار فرنسا وغدوها تحت سنايك الالمان واضطرارها الى المسيرة ؛ فقد خشوا ان تكون الحملة دماً جديداً يحقن الافرنسيين فتعود التصرفات الكريهة التي قاسوا منها ما قاسوا اثناء الحرب . ولم يكن يحظر لبال أحد أن فرنسا الديغولية غير فرنسا التي سيموا من خصفها أشد ما يمكن أن تسام به أمة ضعيفة من أمة قوية سوء إدارة وسوء نية وسوء إستغلال ؛ ولا سيما إنه لم يتغير إلا الاسم ، وإن كثيراً من قواد الحملة وضباطها من كانوا في سوريا كما أن جل الموظفين والضباط الذين قاست منهم سوريا ما قاست وعملوا في سبيل مناوأة الحركة العربية والروح الاستقلالية وتوطيد الاستعمار الافرنسي والسيطرة الافرنسية ما عملوا ظلوا حيث هم ، وكان كاترو رئيس ضباط الاستخبارات والذي كان يدير بواسطة ضباطه حركات الفتن والفساد والفساد والنهب هو المندوب السامي الافرنسي في العهد الجديد ! ولقد سارع شرشل فألقى خطاباً عقب الهدنة أعلن فيه أن إنكلمترا ستظل تعترف بمصالح فرنسا وحقوقها في لبنان وسوريا وأن كان أشار إلى نية منحها استقلالها وحققها فيه كما ان الجنرال ديغول سارع إلى زيارة سوريا ولبنان وصرح فيما صرح به أن فرنسا باقية في الشرق لمتابعة عملها العظيم في مساعدته وإرشاد أهله ، وان تبدل الأشخاص والأسماء لا يعني تبدل فرنسا وإن كان أشار كذلك إلى ما أشار اليه شرشل ، فجاء كل هذا مصداقاً لما ثار في نفوس السوريين من همّ وقلق... ومن المضحكات المبكيات ان بنان رئيس الحكومة الفيشية التي كان رجالها يرغون

وجوهم على تراب اقدام الالمان لم يجعل هو الآخر بأن يؤكّد تعلق فرنسا ببلاد الشام حيث اذاع بياناً يعتذر به عن اضطرار قواته للهدنة لعدم التكافؤ بين القوى، ويوجه شكره لأهلها على تعلقهم بفرنسا، ويطمئنهم بأن هذه النتيجة ليست إلاّ حالة عارضة، وان فرنسا التي احبوها لن تتركهم وستظل تقوم بواجبها من الارشاد والحماية نحوهم، ثم أمر داتز باحتفاظه بقلبه كمندوب سام وقائد عام برهاناً على اهتمامه لهذا الواجب العظيم!! «كبرت كلمة تخرج من افواههم إن يقولون إلاّ كذباً».

ولقد كان فيما كان أن الجنرال كاترو اذاع بالراديو نداء ألقى بالطيارات كمنشور على سوريا ولبنان بين يدي زحف الحملة ذكر فيه أن الحملة إنما تستهدف تحرير الشام وحفظها من خطر الالمان ومنحها استقلالها على أساس التعاون النزيه ودعاهما إلى التعاون معها واستقبال العهد الجديد والفرصة الذهبية السانحة، وانه حينما قدم الى سوريا عقب الهدنة أرسل إلى خالد العظم رئيس الحكومة كتاباً أكد له هذا الوعد وطمأنه بتحقيقه في وقت قريب، وأن الوزير الانكليزي لبتلتون وهو المفوض اليه أمر المسائل المدنية والسياسية في جبهة الشرق العربي جاء إلى بيروت اثناء وجود ديقول واجتمع به ثم نشر كتابان في آن واحد من الاول للثاني يثبت فيه ما تم الاتفاق عليه في المحادثات الشفوية من أن انكلترا لاتتعقب اي مطمع أو سياسة خاصة في سوريا ولبنان وان إنكلترا وفرنسا متفقتان على منح هذه البلاد استقلالها وحكمها الوطني على ان يكون لفرنسا حق الرجحان فيها، والثاني من ديقول الى لبتلتون يسجل فيه اعتراف انكلترا بان لا مطمع ولا سياسة خاصة لها في سوريا ولبنان واعترافها كذلك بمركز فرنسا وحق رجحانها فيها، ويؤكد ان فرنسا متفقة معها على منح هذه البلاد إستقلالها وحكمها الوطني على اساس التعاهد الذي يضمن لفرنسا ذلك المركز والحق.

المفاوضات في سبيل اقامة عهد جديد وروح فرنسا الاستعمارية فيها

وقد جرت بناء على ذلك كله وعقب الهدنة بمدة غير طويلة سلسلة غيوطويلة من الاتصالات والمشاورات بين ديقول وكاترو من جهة ورجال سوريا من جهة

أخرى تحتوي في مطاويها نوحى الافرنسيين تثبيت مركزهم واعتبارهم أصحاب الشأن ومصدر السلطات في سوريا ونهالكهم على الوصول إلى وضع مستقر على أيديهم على اساس معاهدة تجعل لمركزهم ورجعائهم وما ينطوي فيها من مطامع إستعمارية صبغة شرعية ودولية ، كأنما كانوا يخشون ان تضع الفرصة او كأنهم كانوا يريدون ان يستغلوا فرصة اعتراف الانكليز بمركزهم قبل مرور الزمن عليه ، بما يدل على انهم لم يكرتوا في قرارة انفسهم مطمئنين الى الموقف بصورة عامة والى الانكليز بصورة خاصة .

الانكليز في هذا العهد

ولقد كان وجود جماعة فرنسا الحرة وحياتها وقوادها وقواتها وحركتها قائمة بحال الانكليز ووسائلهم ، وكانت القوى الانكليزية في سوريا تفوق قواها كثيراً ، وكان وجود الانكليز هو المحسوس والأقوى ، حتى لقد ألغى محافظ الجزيرة وظيفة المندوب الافرنسي في محافظته فلم ير هذا بداً من الرحيل ، وامر موظفي الجمر على الحدود بتوريد جبايتهم الى صندوق المحافظة فابوا فلم يلبث ان ذهب ضابط إنكليزي على الحدود واركب الموظفين الافرنسيين سيارة واجلاهم الى بيروت كما كانت ابواق الدعاية الانكليزية تهتف بالسوريين انهم احرار في التعاقد مع الافرنسيين وعدمه ، وان لهم الحق في إبداء رغباتهم بمضابط بقدها ونها للسلطات الانكليزية ، وكانت دعاية ومساعي عبد الله بن الحسين في صدد اغتنام الفرصة وتوحيد بلاد الشام تنشط نشاطاً غير يسير مما يمكن ان يوهم انه من تشجيع الانكليز ، وكانت فريق من رجال سوريا الوطنيين يوثق صلاته بالانكليز الخ الخ ؛ فكل هذا اثار على ما يبدو قلق الجنرالين الافرنسيين وريبتها وجعلها يهتان ذلك الاهتمام الذي اشرفا اليه .

- ٧ -

نشاط عاهل الاردن ونعبدى على مزمار

ونتساءل في هذه المناسبة عما اذا كان رجال سوريا غفلوا او تعمدوا اغفال

مدى نشاط ومساعي عاهل الاردن في سبيل توحيد سوريا ، وعما اذا كانت هناك فرصة اضيقت بعدم تجاوبهم بقوة وجد مع هذه المسايع وذلك النشاط ، وعدم اغتنامها لتحقيق امل تنشده الشام كما ينشده عبد الله بن الحسين ، وعما اذا كانت السياسة الانكليزية الرسمية مستعدة لتعزيد هذا التجاوب والاستفادة من هذه الفرصة .

والحق ان صاحب عمان نشط نشاطاً عجبياً في تلك الظروف اي في عامي ١٩٤١ و ١٩٤٢ فضلا عن استمراره في النشاط بعدهما في سبيل هذا الأمر ؛ حيث اخذ يكتب للحكومة الانكليزية ويتصل بممثليها في عمان والشرق العربي ويعقد معهم الاجتماعات ويقدم المذكرات والحلول ويعاود الكتابة بسبيل الرد على مايتلقاه من اجوبة ، ويحمل حكومته اتخاذ القرارات والاتصال من ناحيتها وبصفتها الرسمية بالحكومة الانكليزية وبذل الجهود المختلفة ؛ وبأدأ رجال الشام بالمراسلة عن طريق فارس الحوري ، واذاع بياناً على اهل البلاد الشامية دعا فيه الى مؤتمر عربي لتقرير الخطط والخطوات في سبيل الوحدة السورية التي هي مطلب الجميع على ما يستفاد من الوثائق العديدة المنشورة في الكتاب الابيض الاردني الصادر في عام ١٩٤٧ ؛ بما يدل على انه كان معتقداً اعتقاداً قوياً بأن الفرصة سانحة والظرف موات .

ولقد احتوت رسالة فارس الحوري معنى من معاني التجاوب وفيها ما يمكن ان يدل على ان اخوانه او بعضهم كانوا مطلعين وموافقين عليها ؛ ولايبعد ان يكونوا جادين في ذلك لانهم لا بد من انهم قد هللوا كما قلنا من احتمال تجدد حيوية فرنسا عن طريق الحركة الديفولية بعد ما كان من اغتباطهم بانهارها وتعليقهم الآمال الكبيرة على الخلاص نهائياً من مخالبتها لانهم لا بد من انهم كانوا مدركين ان هذا الخلاص لا يتم إلا بتعزيد الانكليز ، كما انه كان في سوريا اتجاه قوي نحو هؤلاء بسبيل الخلاص المنشود .

ومع ان اجوبة الانكليز كانت كعادتهم تحتوي شيئاً غير يسير من التطين والتأميل والكلام المعسول عما تكنه بريطانيا للعرب من مودة وتذكره مع العطف الشديد من آمالهم في الوحدة ومطابقتها معهم فيها فقد كانت تحتوي استمهاالا وتشير الى ان الامور غير مجلية ، وبتعبير اصح كانت اجوبتهم مطاطة وموهة ؛ هذا الى ما

كان من تصريحات شرشل وكتاب ليتلتون الى ديفول المسبوق باتفاق شفوي بشأن مركز فرنسا وحق رجحانها في سوريا ولبنان . فكل هذا يمكن ان يدل على ان مساعي صاحب الاردن ونشاطه انما كان صادراً عن مطامحه وآماله القومية والشخصية فحسب ، وان السياسة الانكليزية الرسمية لم تكن جادة في تشجيع ذلك النشاط والمساعي ووصولها الى نتيجة ايجابية ، وان ما كان يبدو من نشاط عمال الانكليز ومهاسنهم قد كان لما رب اخرى . ولو كان العكس صحيحاً لما عدم الانكليز وسيلة الى التشجيع على تجاوب قوي وانتاجه إذا لم يروا أن يتظاهروا فيه تفادياً من إثارة الافرنسيين ؛ ولاسيما ان الظروف كانت مواتية بما كان لهم من حول وطول وبما في سوريا من اتجاه نحوهم وكره مريب نحو الافرنسيين ، فضلا عن انه لم يكن لديفول الذي كانت حر كته ضعيفة وقائمة على الانكليز في كل شيء ان يفعل شيئاً ، وهو مضطر على كل حال الى السير في ركابهم بسبيل ما هو اعظم خطراً وهو تحرير فرنسا نفسها التي كانت منهارة وتحت رحمة الاقدار المجهولة . ولقد كان في ما اقدم عليه الافرنسيون في سياق قيام العهد الجديد في سوريا وتقريرهم في النهاية الوقوف موقف العداء من الكتلة الوطنية ، وتعيينهم عدوها الشيخ تاج رئيساً للجمهورية وقيام حكومة متسقة قليلا او كثيراً معهم في ذلك الموقف على ما سوف نذكره بعد حافز لرجال الكتلة الى التجاوب لو شجعوا عليه من قبل الانكليز بشكل من الأشكال او لو لحظوا انهم مؤد الى نتيجة ايجابية . ولقد حاول بعضهم ان يوثق صلاته برجال الانكليز وان يستعديهم على تصرف الافرنسيين والسلطات الحكومية التي اقاموها ، وان ينشط في سبيل تحريك الدفة نحوهم ؛ فسارع الافرنسيون الى نشر بيان انذاري لهؤلاء وامروا بعضهم بالاقامة الاجبارية في امكنة عينوها لهم ، وبدأوا بحركة مطاردة واعتقال ضد من اشتبهوا في ممالأته وضلعه في ذلك النشاط ، مما اضطر من استطاع الافلات من رجال الكتلة وغيرهم من الوطنيين الى مغادرة البلاد او الاختفاء والانزواء فلم يتحرك الانكليز ورجالهم لنصرتهم وحمايتهم فضلا عن تشجيعهم في السير في سبيل الاهداف التي كان ينشط لها صاحب الاردن . وعلى هذا فلسنا نرى محلاً للقول انه لو تضامن رجال الشام في هذه الآونة مع صاحب الاردن لكان في الامكان تحقيق هدف قومي عظيم ينشده المشار اليه كما ينشده رجال

الحركة العربية، وهو تحرير سوريا ولبنان من فرنسا وتوحيدهما مع الجزئين الجنوبيين الاردن وفلسطين؛ لان هذا ما كان ليم في حال بدون رضا الانكليز وتشجيعهم. ونعتقد ان رجال الشام لم يكونوا في موقف يجعلهم لا يرحبون بهذا التشجيع ولا يسرون في نطاقه لو كان مها تكن هناك من اعتبارات اخرى. ولم يخرج الانكليز ازاء حركة الوحدة والمشاورات بسبيلها عام ١٩٤٣ - ١٩٤٤ عن ذلك النطاق بالرغم عن تظاهريهم بالمعطف والتشجيع على ماسوف نذكره بعد؛ بما يدل على انهم يسرون وراء سياسة مرسومة مركزة وهي عدم تشجيع العرب على قيام كيان قومي متحد لهم وتفضيل بقائهم منفردين مع دخولهم في دائرتهم...

- ٨ -

الجمهورية الثانية برئاسة الشيخ تاج واهداثها

ولقد كان هناك خلاف على كيفية بدء الخطوة الى وضع جديد في سوريا؛ فالوطنيون او بتعبير اصح رجال الكتلة الوطنية التي ظلت تمثل الحركة الوطنية كانوا يرون ان الوضع الدستوري الاول هو الذي يجب ان يعتبر قائماً فيجتمع المجلس النيابي ويقر او يرفض استقالة هاشم الاتاسي رئيس الجمهورية، فاذا رفضها عاد هذا الى مركزه والى وزارة وجرت الامور في المجرى الدستوري، وإذا قبلها انتخب خلفاً له وجرت الامور كذلك على هذا النمط، وان امر التعاقد يجب ان يتوثق فيه؛ في حين ان الافرنسيين كانوا يرون ان يقوم العهد الجديد بأمر او خطوة تصدر عنهم، وان تتجدد المعاهدة، وان يكون لهم التوجيهات الضرورية وخاصة في ظروف الحرب ومقتضياتها. وبعد اخذ ورد وتقارب وتباعد انقطع الاتصال بينهم وبين اولئك؛ فالافرنسيون اصرروا على وجهة نظرهم دون ان يعاوا بتناقضها مع اعلانهم ودعايتهم؛ والانكليز رأوا على ما بدا ان لا يتدخلوا في الامر لئلا ينقضوا عهدهم مع الافرنسيين وتفتر حماسهم في تغذية المقاومة السرية، ما كان يشغل بال الانكليز في الدرجة الاولى؛ فاتصل الافرنسيون حينئذ بالشيخ تاج الدين الحسيني الذي كان ذهب الى فرنسا عقب اقالة حكومته عام ١٩٣٥ ولم يعد إلا قبل الحركة

الجديدة ببضعة أشهر واتفقوا معه على وجهة نظرهم بعد ان قام كاترو بحركة استفتاء
بهلوانية ، وادعى ان الناس اجمعوا على ان الشيخ خير من يقوم بالمهمة ! وارسل
بصفته مندوباً سامياً لفرنسا الحرة اليه كتاباً يكلفه فيه بالقيام بمهمة رئيس الجمهورية
وصلاحياته ، ويقول فيه فيما يقول ان اتصالاته بالناس واستكشافه للرأي العام
السوري جعله يرى انه هو الشخصية التي تستطيع الاضطلاع بأعباء تنظيم هذا الدور
الجديد على اساس معاهدة تعقد بين فرنسا وسوريا ! هذا في حين انه يعرف ان
الشيخ كان مبغوضاً وان شعار اضراب عام ١٩٣٥ وثورته كان الهتاف ضد عهده ،
وانه اخفق في محاولاته في حمل الناس على التعاون معه والتعاهد مع فرنسا في ذلك
العهد ، وانه لم يستطع البقاء في البلاد على اثر اقالته . . وهكذا ظهر ان الافرنسيين
ظلوا على تجاهلهم بانعنيه سوريا من حركتها الوطنية ومطالبها الاستقلالية ، ورجعوا
الى تمويهاتهم وحلولهم الزائفة وتجاريمهم الخائبة ومناوئتهم للحركة العربية ولم يتورعوا
بسييل ذلك عن الكذب العلني على البلاد وعن مناقضتهم لصفاتهم وعدم اعتبارهم بما
حلّ فيهم ، كما ظهر انهم قد قرروا الوقوف من الكتلة الوطنية موقف العداء الذي
ظلت تفقه فرنسا منها على اعتبار انها رمز للحركة العربية والروح الوطنية والنضالية .
وقد الف الشيخ وزارته الاولى برئاسة حسن الحكيم ومن اتاس عرف بعضهم
بعدائه للكتلة وبعضهم بولائهم الوثيق لفرنسا ومشروعاتها ، وبعضهم بذبذبه او
طمعه في المنصب على اي حال . فكان في هذه النشكيلة ما فيه الدليل الكافي على
موقفهم ومقصدهم .

وبعد قليل اقيمت حفلة كبرى باسم حفلة الاستقلال خطب فيها كاترو والشيخ ،
فقال الاول ان فرنسا الحرة قد حققت ما وعدت به من منح سوريا استقلالها وانه
سيباشر قريباً امر عقد المعاهدة التي تنظم الاتصالات بينها ، وان هذا الاستقلال مقيد
بما للحرب من ضرورات مبرمة وان سوريا مدعوة لتهيئة قوى وطنية توضع تحت
قيادة الحلفاء للدفاع عن القضية المشتركة ، وانه مع الاعتراف بوحدة سوريا السياسية
والجغرافية يجب ان تراعى رغبات بعض المناطق في تمتعها باستقلالها المحلي والاداري
(يعني جبل الدروز ومنطقة اللاذقية) ، وشكر الشيخ في خطابه ما كان من عطف
فرنسا الحرة ووفائها ومساعدتها على اقامة كيان سوريا المستقلة وقال ان سوريا لن

تنسى هذا الجليل ، وانها مستعدة للتعاون مع الحلفاء في كل شيء ، مساهمة في تأمين النصر لهم ، فوطدت هذه الحفلة والخطابان اللذان القيا فيها الصفة التي ارادها الافرنسيون للعهد الجديد ، وكشفت في الوقت نفسه عن تمسك هؤلاء بالسياسة التي انتهجوها قبل الحرب دون تبديل وتغيير .

وبما جري أن كاترو اصدر بعد قليل قراراً بارتباط جبل الدروز ومنطقة اللاذقية بسورية كدولة على ان يحتفظا باستقلالهما الاداري ومجلسيهما التمثيليين وميزانيتهما الخاصة تنفيذاً لما جاء في خطابه . وأقام الشيخ تاج حفلة مناسبة لهذا القرار اشاد فيها بنعمة فرنسا وتحقيقها مطلب الشعب بالوحدة بعد الاستقلال ...

- ٩ -

جو الحرب ثانية في سوريا

ولم يلبث جو الحرب ان عاد ثانية ، وان اصبحت سوريا قاعدة مسن قواعد الحرب وطريقاً من طرق مواصلاتها ومركزاً من مراكزها في الشرق العربي . وقد سير في الاستنفاع بكل ذلك اشواطاً كبيرة ، فقامت حركة تجنيد وتطويع كان منها فصائل عديدة منها ما رابط في سوريا لاعمال الأمن والحراسة والمواصلات ومنها ما ارسل الى بعض جبهات الحرب ، ووضعت السلطات يدها على مختلف مرافق البلاد وغلاتها ، وتولت امر تنظيم الاعاشة المدنية بالاضافة الى العسكرية ، وعبدت كثيراً من الطرق ، وأنشأت كثيراً من الشكنات والمعسكرات والمطارات والمؤسسات العسكرية المختلفة ، وصارت سوريا بالجملة تعج بالحركة الحربية . وساعد على هذا هجوم الالمان على الروس وانتعاش امل الحلفاء في كسب الحرب ودحر الالمان من حدود مصر من جهة وضرورة الاستعداد للدفاع عن الشرق العربي تجاه احتمال تطويق الماني عن طريق القفقاس من جهة اخرى .

وقد اهتم الانكليز لتنقية سوريا من ما يسمى اعداء او غير موالين ، ولا سيما إن حركة العراق كشفت لهم عن عواطف كامنة ضدهم في بلاد العرب فاتجه عما كان منهم نحوهم من الأعيب وأساليب وكوارث وغدر ، وتضامن الافرنسيون

معهم في هذا الاهتمام لتنقية البلاد من اعدائهم الذين اعتادوا إزعاجهم في تاريخ النضال السوري ، وكانت ضرورات الحرب وظروفها مبهرات قوية . فابتليت سوريا من جراء ذلك بمحنة شديدة ولعبت الجاسوسية التي كانت مصبوغة على الاغلب بالصيغة الافرنسية او التربوية الافرنسية دوراً غير يسير في هذا الميدان ، فأخذت مراكز الاعتقال تمتلئ برجال الوطن وشبابه ، واضطر كثير منهم للتواري او التشرذ ، وقد تناولت المحنة كثيراً من زعماء الكتلة وشبابها وانصارها بما يعور القول إن عداة رجال العهد الجديد للكتلة قد لعب دوره في هذا الميدان ، ولا سيما ان عهد الشيخ تاج قوبل بمقابلة عدائية من الشعب ودوائر الكتلة الوطنية ونشرت مناشير شديدة في انتقاد هذا العهد وتجرحه ، واستغل الافرنسيون ظروف الحرب التي جعلت الانكليز يسايرونهم فعادوا إلى عسفهم وإرهاقهم بسبيل الاثراء ومثلوا الدور البشع الذي مثله في فترة الحرب الاولى بما فصلناه في مناسبة السابقة .

ولقد استمر هذا العهد سنة ونصفاً ، وبما جرى ان الشيخ تاج الذي كان يعرف ان منصبه غير شرعي ومحل للتجريح لانه مستمد من السلطة الافرنسية حاول ان يسبغ عليه صفة شرعية بشكل ما ، فبذل جهوده مع اعضاء المجلس النيابي المعطل وساعده في جهوده الافرنسيون الذين لم ينجحوا إلى اجراء انتخابات ولم يسمحوا باستئناف المجلس المعطل لحبائه انسياقاً بذهنيتهم المعتادة ، ولا سيما إنهم يعرفون كما يعرف الشيخ انه لا يمكن أن ينال الثقة من طريقها العادي ، فحصل على مضبطة موقعة من نحو خمسين نائباً فرروا فيها ثقتهم به واعتباره رئيساً شرعياً ! ولقد تغيرت في هذا العهد ثلاث وزارات بسبب ما كان من تصرفات ومداخلات افرنسية معتادة وخاصة بسبب ادارة الاعاشة ومصاعبها . وكانت الوزارات التاليتان الاولى في نفس الصفة التي وصفناها قبل .

موت الشيخ تاج والحياة النيابية ثانية

وقد خلف حسني البرازي حسن الحكيم وخلف جميل الايلشي حسني البرازي . وفي عهد وزارة الايلشي مات الشيخ تاج وظلت الدولة مدة ما بدون رأس . وقد كانت تجري خلال مدة العهد المساعي والاتصالات بالانكليز في سبيل تعديل الحال

واسترضاء نفسية الشعب والتفيس عنه عن طريق إقامة وضع شرعي صحيح ليتطابق الحال على ما يعلنونه من اهدافهم الديموقراطية وخطتهم من تمتع سوريا بالاستقلال والحكم الوطني حتى استجابوا اخيراً الى هذه المساعي ، واضطر الافرنسيون الذين كان وضعهم مع الانكليز وضع التابع المحتاج ، فأمر ديفول مندوبه كاترو بتهيئة المجال لاعادة الحياة النيابية ، فنحيت الحكومة الايلشية وقام مقامها حكومة انتقال حيادية برئاسة عطا الايوبي .

زعامة شكري القونلي

وكان جو الضغط والارهاق قد خف فاستعاد زعماء الكتلة حريتهم ، وجرت الانتخابات في شهر تموز عام ١٩٤٣ بجرية تامة وانتصرت الوطنية انتصاراً باهراً بزعامة شكري القونلي الذي انعقدت له هذه الزعامة واتجه اليه الرأي العام انجهاً شديداً كان به رجل الساعة وصاحب الكلمة الحاسمة ، وانتخب في ١٧ آب عام ١٩٤٣ بالاجماع من قبل المجلس النيابي الجديد رئيساً للجمهورية ، وتألقت الوزارة برئاسة زميله سعد الله الجابري وعضوية اعضاء من رجال الكتلة وغيرها وان كان الاعضاء الكنولويون هم الكثرة فيها ، حيث اراد شكري القونلي ان يدشن العهد الجديد بوزارة تمثل الكتلة وغيرها ، وكان يبشر في الاجتماعات العامة التي كان يحضرها والرحلات التي كان يقوم بها اثناء الانتخابات بالاحزبية وبالانحداد الوطني الذي يجب ان تواجه سوريا به ما يكتنفها وما يستقبلها من ظروف ، ويقطع العهد على نفسه بالتزام ذلك ، وعلى هذا الاساس ترشح ونجح عدد غير قليل من غير المنسبيين الى الكتلة في دمشق وغير دمشق بتوجيه شكري وايعازه .

ولعل ما كان من امر العهد الوطني في سنى ٩٣٦ - ٩٣٩ ورجاله هم رجال الكتلة وقد منوا فيه بهزة عنيفة اثرت في بنیان كنتاجهم واوجدت التخاذل والشقاق بينهم مما ظل اثره مستمراً كان عاملاً في هذه الحطة ، هذا مع التنبيه على ان الكتلة كهيئة رسمية لم تكن قائمة في ظروف الانتخابات بل يصح ان يقال إنها كانت منحلة بدون قرار وإعلان منذ مدة طويلة قبلها .

الفصل الرابع

العهد الوطني الثاني ١٩٤٣ - ١٩٤٦ (١)

- ١ -

نشاط العهد الوطني الثاني

ولقد نشط العهد الوطني الثاني منذ قيامه الى بث الطمأنينة في النفوس بالرغم من اشتداد الحرب واستمرار ضرورتها ، فأمكن اقناع السلطات العسكرية بتخفيف وطأة هذه الضرورات ، واطلاق سراح المعتقلين ولو تدريجياً والكف عن مطاردة المتوارين والمشردين . فأخذ جو سوريا يتبدل والطمأنينة تثبت والحياة تعود والنشاط يزداد حتى كادت الشام تعود الى سيرتها الاولى بالرغم من كابوس الحرب وسلطاته وضروراته البارزة الاثر فيها .

ولقد اخذت الدول تسارع الى الاعتراف بسوريا المستقلة فكان هذا مما ساعد على تقوية العهد وتوطيده .

وقد ساعد على تقوية العهد وتوطيده كذلك احداث هامة جرت برغم فرنسا .

مساورات الوحدة العربية وأثرها في توطيد العهد

منها مشاورات الوحدة العربية التي بدأت في مصر في اواخر صيف عام ١٩٤٣ اي في ظروف قيام هذا العهد والتي انتهت بنشوء الجامعة العربية ؛ حيث لم تلبث حكومة هذا العهد ان اندمجت فيها .

وقد كانت هذه المشاورات نتيجة لمقدمة بدأت من سنة ١٩٤٠ بما كان من

(١) ينتهي الكلام عن هذا العهد بالجلاء لاننا نعتقد ان الكلام بعد ذلك يدخل في نطاق ما يصح ان يسمى عهداً جديداً ولا يدخل في نطاق موضوع هذا الجزء من الكتاب .

شعور الاوساط العربية القومية بضرورة الاستفادة من ظروف الحرب وتحقيق الهدف الذي استهدفته الحركة العربية وقامت الثورة الهاشمية على اساسه وهو ايجاد كيان عربي سياسي موحد، وبما كان من نشاط صاحب الاردن في صدد هذا وخاصة في صدد توحيد سوريا بعد انهيار فرنسا واستمراره في الاتصالات ورفع المذكرات والحلول؛ وبما كان كذلك من نشاط نوري السعيد في صدد اتحاد عربي يضم بلاد الشام الموحدة والعراق في الخطوة الاولى، وبما كان من تصريحات انكليزية رسمية بتشجيع حركة وحدة ثقافية واقتصادية وسياسية بين العرب بما كان من بواعثه ذلك الشعور والعطف من جهة وامل الانكليز في قيام كيان عربي متحالف معهم تتم به خطة المعاهدات الحليفة القائمة بينهم وبين مصر والعراق والاردن والمملكة السعودية ويضم في نطاقه بلقاء سوريا ولبنان اللذين كانا خارجين عن دائرة هذه الخطة دون ان يشيروا حتى حلفائهم الافرنسيين (١).

ولقد كان لهذا الاندماج فائدة عاجلة لسوريا لأن بغني فرنسا في مايس عام ١٩٤٥ على ما سوف نذكره بعد قد وقع بعده فتضامنت دول الجامعة مع سوريا تضامناً رائعاً كان له اثر عظيم في الاوساط السياسية العالمية كان من نتائجه جلاء فرنسا عن سوريا بعد قليل.

وبما لا ريب فيه ان الافرنسيين قد خنقوا اشد الخنق من هذا الاندماج وتمنوا لو استطاعوا ان يحولوا دونه كما فعلوا في ظروف مؤتمرات لندن العربية الرسمية

(١) ان اول تصريح انكليزي علني في هذا الباب كان في ٢٩ مايس ١٩٤٢ وقد صدر عن ايدن وزير الخارجية في اجتماع عام في لندن. وقد جاء فيه: « ان العالم العربي قد خطا خطوات واسعة منذ التسوية التي تمت في نهاية العام الماضي، - بقصد قيام جمهوريتي سوريا ولبنان وتبادل العهد بين فرنسا والديفولية وبريطانيا على استقلالهما على ما ذكرناه سابقاً - فرغب كثيرون من مفكري العرب في أن يكون للشعوب العربية نصيب من الوحدة أعظم مما تتمتع به الآن. وهم في سعيهم لبلوغ هذه الوحدة يرجون عون بريطانيا وتأيدها. فثل هذا النداء من اصدقائنا لا يمكن الا ان يلهم. وانه ليلوح ان من الطبيعي ومن الحق ان تتعزز الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلدان العربية بل والروابط السياسية ايضاً. فحكومة صاحب الجلالة من جانبها ستؤيد كل التأييد كل مشروع تتم الموافقة الاجماعية عليه». ثم ادلى ايدن نفسه بتصريح ثان في ٢٤ شباط ١٩٤٣ امام مجلس النواب جاء فيه: ان الحكومة البريطانية كما اوضحت قبل تنظر بعين العطف الى كل حركة بين العرب لتعزيز الوحدة الاقتصادية والثقافية والسياسية بينهم. وان من الجلي ان الخطوة الاولى لتحقيق اي مشروع يجب ان تأتي من العرب انفسهم.

والبرلمانية بسبيل قضية فلسطين عامي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ على ما ذكرناه في مناسبة سابقة حيث كانوا يحرصون على ابقاء سوريا منعزلة عن الحركة العربية العامة ، لاسيما ان حركة المشاورات اشد خطورة من حركة تلك المؤتمرات كما هو واضح ، فضلا عن ما كان من ضلع بريطانيا في هذه الحركة بما كان يزيد في حقهم لما كانوا يتوجسونه من مقالب الانكليز لهم في هذه البلاد . ولكنهم كانوا عاجزين عن ذلك لان حركة ديفول كانت ما تزال ضعيفة وعالة في كل شيء على بريطانيا ، ولم تكن لتمثل حتى حكومة في المنفى كما كان شأن حكومات بلجيكا وهولانده وبوغوسلافيا واليونان التي اكتسح الالمان بلادها ، وكل شأنها انها كانت لجنة باسم لجنة التحرير .

٢ -

تعليقات على نتائج مشاورات الوحدة وموقف سوريا

ونقول استطراداً ان صاحب الاردن قد حرص في ما استمر فيه من نشاط على التنبيه على ضرورة وحدة سوريا الطبيعية او اتحادها قبل كل شيء ، وعلى بيان الاعتبارات السياسية والاقتصادية والجغرافية الوجيهة التي تحتم هذه الضرورة والتذكير بها في ما كان يصدر منه من رسائل ومذكرات ويقوم به من اتصالات ويتقدم به من حلول على ان يكون هو ملك سوريا الكبرى إذا كانت وحدة ورئيسها إذا كانت متحدة (١) ، وان يمثله في مشاورات الوحدة العربية المذكورة آنفاً قد حرصوا على التنبيه كذلك على هذه الضرورة ، وان نوري السعيد يمثل العراق أراد ان تكون نتيجة هذه المشاورات اتحاداً فدرالياً بين الدول العربية وقدم بعض المشاريع التفصيلية في هذا الباب ، وان يمثلي سوريا اظهروا استعدادهم للموافقة على اي مشروع فيه وحدة او اتحاد عربي . منوهين ان ذلك من اهداف الفكرة والحركة العربية التي نشأت وترعرعت في بلادهم ومعلمين استعدادهم للتضحية بكل اعتبار في سبيل ذلك . على ان مصر ولبنان وابن السعود فضلوا ان تقوم

(١) كانت النقطة الشخصية نقطة الضعف في نشاط اهل عمان . وقد فطن لها فيما بعد فأخذ يقول ان نظام الحكم يترك لاستفتاء البلاد وان رأسه الاتحاد تكون بالمناوبة .

الرابطة على اساس احتفاظ كل دولة بكيانها واستقلالها وسيادتها ونظامها ، فتغلب هذا الرأي في النهاية وقامت الجامعة العربية على ميثاقها الراهن .

والسؤال المحير هو ما الذي جعل العراق والاردن وسوريا ينزلون على هذا الرأي ويرضون بهذه النتيجة التي جاءت اقل جدوى ومدى مما كانوا يرونه متسقاً مع اهدافهم القومية ومصالحهم الاقتصادية وغير الاقتصادية وهو النظام الاتحادي ، وما الذي حال بينهم وبين المضي في تحقيق هذا النظام فيما بينهم على الاقل ؟ ولا سيما ان صاحب عمان لم ينفذ يده من مشاريعه وظل ينشط بسبيلها بعد قيام الجامعة حتى جاء وقت كان يخرج فيه هذا النشاط من دائرة الدعوة الى ما كان يثير الأزمات الحادة والتوتر الشديد بين سوريا ولبنان من جهة والاردن من جهة وفي درائر الجامعة من جهة كما وقع في سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ ، وان نوري السعيد لم يرض عن ما اسفرت عنه المشاورات من نتائج فتتكرر للجامعة ولم ين عن الدعوة الى مشروعه (١) بعد قيامها ، وان سوريا لم تكن مطمئنة البال إذ ذاك بسبب عودة الافرنسيين بحماية جديدة واخذهم باظهار مطامعهم وروحهم الاستعمارية والتحكيمية ، واعلان الانكليز اعترافهم بحقهم ورجحانهم فيها ، ولم يكن يرد حينذاك ما يرد اليوم من الخوف على استقلالها وسيادتها وجمهوريتها وانجرارها الى نطاق المعاهدات الانكليزية العراقية والاردنية والتزاماتها .

إن من الممكن ان تكون سوريا والعراق والاردن قد رأوا أن الجامعة التي تضم جميع الدول العربية وعلى رأسها مصر قد يكون لها من الاثر في مجال الحركة العربية ما يسد الفراغ وقد تتطور الى ما فيه القوة والغناء ولا سيما ان ميثاقها قد احتوى ابواباً وآفاقاً مفتوحة الى ذلك ، وان اتحاد الهلال الحبيب قد يكون سبباً للتباعد والتناكر بين دولة ودول العرب الجنوبية ولاستمسك نصاري لبنان بفرنسا اكثر من ذي قبل اندفاعاً وراء ما اثير في نفوسهم خلال المدة الطويلة من خوف من البعبع العربي والاسلامي مما يكون فيه ضرر كبير على الحركة العربية

(١) هذا المشروع هو الذي عرف بالكتاب الازرق . وقد قدم بشكل مذكرة من نوري السعيد الى المستر كلاي وزير بريطانيا في الشرق العربي عام ١٩٤٣ ويقوم على اساس توحيد اجزاء سوريا او اتعادها ثم قيام كيان عربي اتحادي نواته العراق وسوريا المتحدة او الموحدة . ويكون لليهود استقلال ذاتي في مناطق اكتظاظهم في فلسطين ويكون للوارثة في لبنان الصغير مثل ذلك اذا رغبوا .

وشمولها ، وان تكون سوريا خاصة قد فضلت ذلك على الاندماج منفردة في
تشكيلة تبدو الماطامح الشخصية والسلطان الفردي فيها قوية بارزة، فلم يسمع العراق
والاردن إلا الدخول في ما دخل فيه الناس على مضض انتظاراً لفرص مواتية
اخرى .

غير ان هذا ليس في نظرنا كل التعليل والاسباب ، ونرجح ان للانكليز اثراً
في ما وصلت اليه المشاورات من نتائج وفي قيام الجامعة على الوجه الذي قامت
عليه ، حيث رأوا ذلك اكثر اتساقاً مع سياستهم القريبة والبعيدة التي منها ان
لا يكون العرب ذوي كيان قوي متحد بالرغم مما كانوا يذيعونه من ان الوحدة هي
من شأن العرب وانهم يعطفون على كل حركة ويؤيدون كل مشروع من هذا
القبيل . ولقد اشار وزير خارجيتهم في تلك الظروف في تصريح من تصريحاته
إلى ما يكتنف موضوع الوحدة من مصاعب عربية ناشئة عن اتجاهات الاسر
المالكة واثرها . ومع ما في ذلك من حقيقة اليمه فإننا نحسب ان هذه الاشارة
العلبية تنطوي على عدم التشجيع على خطوة اوسع مما كان وعلى تبوير ذلك . وفي
عبارات الوزير التي نقلناها سابقاً في تصريحاته شيء من هذا الباب حيث علق
تشجيع حكومته على شرط الاجماع ، ولا بد من انه يعرف ان هذا الاجماع لا
يكون ، بل ولا تستبعد ان تكون المعارضة نتيجة لايعاز إنكليزي بأسلوب مالى
جهة ما . واذا كان الانكليز تظاهروا في القول إن الامر يعني العرب وحدهم فإننا
لا نعتقد انهم تركوه يجري على سجيته ويصل الى نتيجة لا يرتضونها ، ولو كان لهم
رأي غير الذي تم لما اعدوا الوسيلة الى الابعاء بالاساليب الملبقة التي مهروا فيها ،
ولا سيما ان وجه الحرب في ذلك الظرف قد اخذ يبسم لهم بعد العبوس وإنهم كانوا
اصحاب الشأن الاول في الحرب والسياسة وفي حكومات البلاد العربية التي اشتركت
في المشاورات معاً ، وتصريح يلقيه وزير خارجيتهم بذكر فيه ان مصلحة العرب
ان يقوم بينهم نظام اتحادي في هذه الظروف او كلمة مثل هذه ينقلها وزيرهم كاف
لذلك . وحركة المشاورات نفسها قد كانت تجاوباً مباشراً تقريباً لتصريح هذا
الوزير عام ١٩٤٣ الذي ظل العرب ينوّهون به في مختلف مناسبات المشاورات
ونتايجها ويستمدون حركتهم منه ! وحتى لو فرضنا ان مصر وصاحب الرياض

ولبنان استطاعوا ان يتقوا على عدم السير وفق توجيه الانكليز في امر لا يريدونه لاعتباراتهم الخاصة المعروفة فإن هذا الغرض لا يرد بالنسبة للعراق والاردن أولاً وسوريا ثانياً على ما ذكرناه قبل قليل ، وكان من الممكن ان يقوم هذا النظام فيما بين هذه الاقاليم على الاقل لو اراده الانكليز . ولقد قال وزير الدولة البريطاني في مجلس العموم في تاريخ ٢٠ تشرين الاول ١٩٤٤ وبعد توقيع ميثاق الجامعة جواباً على سؤال : « اني استخلص ان المؤتمرين قد توصلوا الى اتفاقات تدعو الى الغبطة والرضى » ، وفي هذا ما فيه من معنى التطابق على ما نحسب . هذا الى ما يحتمل ان يكون للافرنسيين واليهود بل الاتراك دور ما في هذا الباب . فقد كان اليهود في هم وقلق دائبين في ظروف المشاورات وخاصة من تصريحات الانكليز بتشجيع الوحدة العربية ، وكانت صحفهم تحمل الحملات المستمرة ورجالهم دائبون على الحركة والنشاط . وما كان الافرنسيون ليغضوا عن تكتل عربي اتحادي تندمج فيه لبنان وسوريا في ذلك الوقت الذي اخذوا يشعرون فيه بالحوية تعود اليهم وتعود معها اطماعهم وصلفهم وحسبانهم انفسهم أصحاب الشأن الأول فيها ، والذي كانوا يعرصون فيه في نفس الوقت عن مزالق السياسة الانكليزية ، بينما هم لا يغضون اليوم عن مثل ذلك بعد ان قوضوا خيامهم عنها املا في المستقبل واستمراراً في مزاعم مصالحهم التقليدية ، ففضلوا اذ ذاك ومسيرة للظروف العامة والخاصة ان يكون اساس هذا التكتل الاحتفاظ بكيان سوريا ولبنان ونظاميها الراهنين اذا كان لا بد من اندماجها في تكتل عربي عام وبذلوا مساعيهم في هذا النطاق . ولم تكن السياسة التركية الكمالية لترضى عن قيام كيان عربي قوي ومتحد فبذلواهم ايضاً مساعيهم . ونذكر ان رئيس الحكومة التركية ادلى بتصريح في ظروف تلك المشاورات قال فيه ان تركية متفاهمة مع انكلترا في صدد ومدى النشاط العربي الذي يبدو اليوم بما فيه الدلالة على ما نقول .

وقد يخاطر بالبال ان رجال سوريا المسئولين وخاصة رئيس جمهوريتها شكري القوتلي لو تجاوزوا مع عاهل الاردن او معه ومع العراق بعد ان خلصت سوريا من كابوس فرنسا واصبحت تتمتع بحريتها التامة لكان من المحتمل ان يقوم نظام اتحادي بين دول الهلال الخصيب ، او بين الدول السورية . وقد يكون هذا صحيحاً ،

ولكن الخوف من دخول سوريا في نطاق الالتزامات السياسية والعسكرية التي تقيد العراق والاردن مع بريطانيا بعد ان اصبحت حرة من كل قيد وعهد والالتزام اولاً ، ومن زوال النظام الجمهوري ، ثانياً صار عاملاً مهماً في عهد التجارب . ولقد كان يبدو خلال نشاط عاهل الاردن خاصة تصريحات وحركات كانت تصل احياناً الى اثاره البلبلة والفتنة والهياج ، فكانت تحدث رد فعل نفسي شديداً في رجال سوريا وصارت عاملاً مهماً آخر في عدم التجارب ايضاً ، بل ودفعت هؤلاء الى المقابلة بالمثل ، فكانت مشادات ومهازات انتقلت الى المجالس الرسمية ، واشتد اندماج سوريا في ما سمي بالمحور المصري السعودي إزاء ما سمي بالمحور الهاشمي مما فيه مظهر من مظاهر اختلاف العرب في الانجاعات والاعتبارات الشخصية ، وخيم التوتر والجفاء في سني ١٩٤٦ - ١٩٤٨ على ساحة الجامعة العربية وبين رؤساء ورجالات سوريا والاردن والعراق بنوع خاص :

على أننا نشك على كل حال في أن يكون الانكليز قدغيروا خططهم التي ذكرناها قبل وهي تفضيل بقاء العرب منفردين وعدم قيام كيان اتحادي قوي بينهم ، وأنهم قد غدوا حريصين على تحقيق المشاريع الاتحادية في أقطار الشام والعراق التي يدعي اليها ويسعى في سبيلها . وإذا كان يح أو تلمح أحياناً أصابع انكليزية في ما كان من مساع ودعوة فانها لا تحمل طابع جد يدل على تغيير الخطة المذكورة فيما نراه ؛ ولعلها من قبيل حرب الاعصاب لتضطر سوريا ولبنان الى عقد معاهدات مع الانكليز بدخولها في نطاقهم الذي تدور فيه الآن العراق ومصر وعلى النحو الذي يربدونه فتكمل بذلك حلقات السلسلة الانكليزية التي تطوي المشرق العربي والتي أخذت تمتد الى بعض انحاء المغرب العربي ايضاً مع بقاء الدول المرتبطة بها منفردة . ولعل من الدلائل على هذا ما كان يدار من الكلام على العزلة والانفراد وما في ذلك من خطر وضرر على سوريا ولبنان ، بل وعلى فائدة وضرورة التعاقد الاقتصادي والسياسي مع بريطانيا صراحة اثناء دوران الكلام

حول تلك المشاريع . ولعل من مقاصد حرب الاعصاب في ما كان يلمح من اصابع الانكايين النشويش والبليلة بين العرب وقت الاعضاد فيهم ، ولا سيما ان الكلام حول سوريا الكبرى خاصة قد اشتد في وقت اشتدت فيه خطورة قضية فلسطين واشتدت فيه النقمة على بريطانيا لموقفها الغادر المتصل بسياستها اليهودية المركزية منذ البدء وفتحها باب الهجرة اليهودية والقضية اليهودية من جديد بعد ما اوصلته بيدها بالكتاب الابيض الذي قطعت على نفسها فيه العهد بالوقوف من تلك الهجرة والقضية في الحد الذي وصلت اليه وبانتهاء الانتداب على فلسطين وعلان استقلالها على اساس النسبة الراهنة من سكان . وقد المع الى هذا كثير من رجالات العرب الرسميين وغير الرسميين في مختلف المواقف خلال سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ . ولعل من الدلائل على عدم تغيير الانكايين خططهم التي اشروا اليها عدم قيام اتحاد بين العراق والاردن مع انه جرى حوله كثير من الكلام وجاء وقت قيل فيه انه تم او كاد ، وليس امامه أي مانع او اعتبار من تلك الموانع والاعتبارات .

ومن الاحداث المهمة التي ساعدت على تقوية العهد الوطني اندماج سوريا في ميثاق الاطلانطي وإعلانها الحرب على دول المحور حيث ادى هذا الى اشتراكها في تأسيس هيئة الامم وميثاقها في مؤتمر سان فرانسيسكو ثم اعتبارها عضواً مؤسساً في هيئة الامم المتحدة نتيجة لذلك .

وقد تم هذا الحادث نتيجة لرحلة قام بها رئيس الجمهورية في اوائل عام ١٩٤٥ الى المملكة العربية السعودية ومصر . وكانت هذه الرحلة في ظروف مؤتمر الأقطاب الاربعة ستالين وروزفلت وشرشل وشان كاي شاك في بونستام وتقريره ان الذين هم في حالة حرب مع المحور قبل نهاية مارس عام ١٩٤٥ هم الذين يدعون الى مؤتمر سان فرانسيسكو الذي يضع ميثاق هيئة الامم المتحدة وفي ظروف زيارة شرشل وروزفلت وشان كاي شاك لمصر ، حيث اجتمع رئيس الجمهورية بشرشل وابدى رغبته في انضمام سوريا للحلفاء في ميثاق الاطلانطي واعلان حالة الحرب مع المحور على اعتبار ان سوريا مشتركة في الحرب بكونها مركزاً من مراكز الحركات الحربية ومواصلاتها وتموينها وبكون فصائلها مشتركة فعلاً في المجهود الحربي في سوريا وفي بعض الجبهات الحربية ولو كان بطريق التطوع . ومع ان شرشل ابدى شكه في دعوة سوريا الى مؤتمر سان فرانسيسكو فان رئيس الجمهورية حينما عاد التقى خطاباً في المجلس النيابي عن رحلته وما جرى فيها وطلب اقرار اعلان الحرب والموافقة على اشتراك سوريا في ميثاق الاطلانطي فقرر المجلس ذلك واعلن الامر للحلفاء ثم بذلت المساعي في سبيل الاشتراك في المؤتمر وعرضتها انكسرتة فنجحت اخيراً واورسلت اليها الدعوة ، ولم يسع فرنسا إلا الموافقة على مضم . وارسات سوريا مندوبها الى سان فرانسيسكو .

ولقد كان لهذا الاشتراك نتيجة عاجلة غير اعتبارها عضواً ذا سيادة وسقوط الانتداب عنها ، وهي استغلال هذا المؤتمر العالمي العظيم ضد فرنسا التي اقدمت في ظروف انعقاده على بغفها اللئيم في ايس ١٩٤٥ فاثيرت ضجة كبيرة فيه اندمغت بها فرنسا وخزيت وكان لها تاثير كبير في ماتم من جلائها نهائياً ، لأن المؤتمر كان

بسييل وضع ميثاق السلم ومنع البغي والعدوان وحق الشعوب في السلامة والحرية
وتقرير المصير تحقيقاً للأهداف التي اعلنتها الحلفاء وسجلها ميثاق الاطلانطي . .
وبما جرى بعد بضعة اشهر من قيام هذا العهد ان اجتمع المجلس النيابي وقرر
عدم شرعية وبطلان المادة (١١٦) في الدستور، وهي التي وضعها بونسو عام ١٩٣٠
وقيدها بممارسة سوريا لسيادتها وحقوق رئيس جمهوريتها وحكومتها على ما ذكرناه
في فصل سابق . ولم يكن رئيس الجمهورية والنواب افسحوا بالاخلاص للدستور
بسبب وجودها، وعقد المجلس جلسة خاصة في ٣٠ كانون الثاني من سنة ١٩٤٤ اقسام
فيها الرئيس والنواب للدستور بعد اعلان بطلان هذه المادة الانتدابية الحيثية، وبلغ
بمثل فرنسا هذه الصفة الشديدة التي ردت سوريا بها اعتبارها وكرامتها .

- ٣ -

ولقد اهتم رجال العهد منذ بدئه لاصلاح شؤون الدولة وتوسيع نطاق التعليم
والمنشآت العلمية والصحية والاقتصادية والزراعية والفنية ، فاستطاعوا بفضل الجو
الجديد السائد أن يخطوا في هذا المضمار خلال السنوات الثلاث الأولى خطوات
واسعة تمثلت في ما كان من مقررات موازنة المعارف وعدد طلابها ومدارسها وعدد
المصحات والمستشفيات وموازنة الاشغال العامة (١) ، وفي العدد العديد من
الأنظمة واللوائح والقوانين ، فضلاً عن ما هبأه جو العهد من طمأنينة حملت رجال
المال على تأسيس الشركات الصناعية الكبيرة التي انشأت منشآت ومصانع تضاهي
أحدث وأكبر المنشآت الحديثة .

(١) كان المجموع الكلي للطلاب في اول سنة ١٩٤٣ (١٢٠) ألفاً فاصبح في سنة ١٩٤٦
(١٩٠) ألفاً وكان عدد المدارس (٦١٨) فاصبح (٨٥٧) وكان عدد طلاب الجامعة (٦٨٠)
فاصبح (١٨٠٠) وكانت موازنة المعارف سنة ملايين ليرة سورية فاصبحت اربعة عشر مليوناً .
واصبح في كل مركز قضاء مصح وفي كل مركز محافظة مستشفى بحيث تضاعف العدد عما كان سابقاً .
وكانت موازنة وزارة الاشغال العامة في اول سنة ١٩٤٣ نحو ثلاثة ملايين ونصف ليرة سورية
فاصبحت في سنة ١٩٤٦ عشرين مليوناً عدا ما خصص لمشروع الهاتف الالي العظيم من موازنة خاصة
بلغت نحو ستة وعشرين مليوناً . ولقد خصص وانفق لشؤون الاعمار والاشغال العامة في اثنين وعشرين
سنة من عهد الانتداب واحد وثلاثون مليون ليرة فأدبى ما خصص في السنوات الثلاث لهذه الشؤون
على سبعة واربعين مليون عدا مخصصات مشروع الهاتف !!

وكان من أهم ما اهتموا له تخلص كتاب الجيش الأهلى وقوى الشرطة والدرك من السيطرة والقيادة الافرنسية ، واستلام الدوائر والمصالح المعروفة بالمصالح المشتركة التي كانت تدار من قبل السلطات الانتدابية مباشرة مما كان من المظاهر الصارخة للتحكم والاستعمار وانتقاص استقلال البلد وكرامته وسيادته . وقد كانت حكومة في قلب حكومة لها الأثر الأقوى في حياة البلاد وإيرادات الدولة وكثيرة كثيرة عجيبة على ما ذكرناه في مناسبة سابقة ، تدل على ما كانت للافرنسيين من يد متغلغلة في كيان الدولة تغلغلاً واسعاً كان هو الذي أثار هلع الافرنسيين من توطد العهد الوطني الأول وعنادهم وسوء نياتهم من الناحية الشخصية أيضاً حيث كانت مرتعاً خصيباً لجيش كبير من موظفيهم ينعمون فيه بالرغد والثروة والجاه .

ولقد حاول الافرنسيون أن يجعلوا هذه المسألة وسيلة لتوطيد مركزهم متماز لهم في سوريا وأخذوا يجاذبون رجال العهد الوطني الجديد ويشادونهم حولها ، ويطالبون بعقد معاهدة توطد العلائق بينهم وبين سوريا يضمن لهم مركزهم الثقافي والاقتصادي والعسكري قبل النزول لهم عن هذه المصالح . ووقف رجال العهد إزاء ذلك موقفاً قوياً أساسه تفادي الارتباط بأي عهد يجعل لأي دولة مركزاً متمازاً في بلادهم مع الاستعداد لاقامة الصلات بين سوريا والدول الأجنبية بما فيها فرنسا على أساس المائدة وتبادل المنافع والمودة دون فرق ولا تمييز ، ووجوب تحلي فرنسا قبل كل شيء عن ما في يدها من المصالح لما في بقائها من المساس بالسيادة وتعطيل الأمور .

ولقد كان هذا الموقف مضافاً الى المواقف السابقة يثير دغول وجماعته ويحملهم على إرسال النصريحات التي تعبر عن امتعاضهم من رجال العهد وتصلبهم او تعصبهم ، وتحمل روح التهديد والنيات المريبة نحو العهد ، واخذوا يتصلون بالحكومة البريطانية لتسوية الامور معها ذهاباً منهم الى ان هذه الحكومة هي التي تدعم رجال العهد في موقفهم ؛ وعادت هذه الحكومة نتيجة لذلك فصرحت باعترافها بمصالح فرنسا في سوريا ولبنان واملها بقيام تفاهم حر بين الفريقين على هذه المصالح . غير ان رجال العهد ظلوا مصممين على موقفهم بوجوب تسليم دوائر المصالح

المشتركة قبل كل شيء ودون ما قيد وشرط ، وتمكنوا بعد العناء والمشاقة والتضحيات المالية الجسيمة ، وبالتضامن الذي قام فيه عهد وطني والذي كان مشتركاً في هذه النكبة الانتدابية من حمل الافرنسيين على عقد إتفاق في تاريخ ٢٢ كانون الاول ١٩٤٣ بين ممثلي سوريا ولبنان من جهة والجنرال كاترو ممثل فرنسا من جهة على تسليم هذه المصالح تدريجياً وفي اوقات محددة خلال ستة أشهر ، وتنفيذه باستثناء كتائب الجيوش المحلية . وقد اقيمت في سوريا ولبنان حفلات مشتركة لتوقيع اتفاقيات تسلم الصلاحيات فكان هذا إعلاناً بزرلة اقدام فرنسا من البلدين

النسار على تسليم الجيش الوطني وسكر فرنسا

اما الجيش فقد استبقاه الافرنسيون في ايديهم على ما بدا كرهينة على الحصول على المركز الثقافي والاقتصادي والاستراتيجي الممتاز الذي يطالبون بعقد المعاهدة الضامنة له ، وكان سبباً من اسباب المشاقات المضنية ثم الكارثة الدموية الباغية التي اوقعها الافرنسيون في البلاد حينما رأوا ان سوريا قد تفلت من ايديهم وجن جنونهم . غير ان رجال العهد ظلوا ثابتين في تصميمهم على عدم الارتباط بأي معاهدة تمنح فرنسا او غيرها مركزاً ممتازاً ما ، وفي المطالبة بتسليم الجيش اسوة ببقية الدوائر والمصالح التي استلموها . وعادت الاتصالات بين فرنسا وبريطانيا وعادت التصريحات من جانب هذه بالاعتراف بمصالح تلك ، وعادت تهديدات ديغول وتصريحاته تحمل النيات المريبة والمقاصد العدوانية بما كان يجعل الموقف متوتراً والجو متلبداً .

وبما كان وفيه الدلالة على نيات فرنسا المريبة انها ظلت تعتبر ممثلها مندوباً ولم تلقه بلقب سفير او وزير مفوض ، وظل هو يعتبر نفسه كذلك رغماً عما كان يشيروه هذا من المشادة والامتناع والمواقف الحرجة . ولقد حاول ان يمارس سلطة المندوب السامي التشريعية في مناسبة ما فأصدر في حزيران عام ١٩٤٤ بعض القرارات ، ومع انها كانت نافذة وغير متصلة بشؤون سوريا ولبنان اتصالاً جوهرياً فقد رأى رجال العهد في البلدين ان يقفوا امام ذلك مهتماً كلهم الامر فأصدت

كلنا الحكومتين بياناً اشارت فيه الى هذه القرارات واعلنت انها لا تعترف لأحد بأي حق في إصدار قرارات تشريعية مهما كان موضوعها وانها تعتبر ما صدر من جانب المندوب الافرنسي من ذلك باطلاً ولاغياً وتعلن ان سلطة التشريع منحصره بالدولة ونظامها الدستوري. وقد كطمت فرنسا على غير عادتها غيظاً من هذه الصفة، لأنها على ما بدا لم تكن في ظرف يمكنها من أن ترد عليها مهما كان في الود حق وسخف وطيش، فقابلتها بهدوء. وقد ظهر في ما بعد أن حدودها هو هدوء ما قبل العاصفة وانها كانت تسر في نفسها البطشة الكبرى حال ما يتم استعدادها لها .

- ٤ -

لأمة مايس ١٩٤٥ وفي فرنسا

وقد كانت هذه البطشة الكبرى في مايس سنة ١٩٤٥ فكانت على سوريا كارثة مفاجئة كلفتها كثيراً من الضحايا والخسائر ولجئتها كانت في ذات الوقت انتفاضة المحتضر قبل لفظ نفسه الاخير بالنسبة لفرنسا في سوريا وفي لبنان معاً .

ولقد بدت مقدماتها العملية في اوائل السنة المذكورة حيث اخذ الافرنسيون يقوون انفسهم حربياً فيرسلون الامدادات المتوالية بينما ظلوا يماطلون في امر تسليم الجيش ؛ مما جعل الحكومة السورية ترتاب وتطلب تفسيراً لهذا الامر بالتضامن مع الحكومة اللبنانية . وقد اعتذر الافرنسيون بأنهم لا يقوون جيوشهم وانما يبدلون بعض كتابتها ؛ وكان عذراً زائفاً ، ولا سيما انه كان من المفروض ان تجلو هذه الجيوش عن البلاد في اول فرصة سانحة لان الحرب قد انتهت او كادت .

على انهم لم يلبثوا ان كشفوا عن نياتهم بعد ان اطمأنوا الى قوتهم وامكانهم ان يملوا مطالبهم املاءً ؛ حيث ارسل مندوبهم مذكرة للحكومتين السورية واللبنانية بتاريخ ١٨ مايس ١٩٤٥ دعا فيها الحكومتين الى المفاوضة في الاتفاقات التي تضمن لفرنسا مصالحها الجوهرية وعقدتها حتى يتم لها ممارسة شؤونها ممارسة استقلالية كاملة ؛ منها اتفاق ثقافي ، ومنها اتفاق قنصلي وتجاري ، ومنها اتفاق استراتيجي بحجة ضمان طرق مواصلات فرنسا وممتلكاتها في ما وراء البحار ؛ وختم مذكرته بقوله : « انه

عندما يتم التفاهم على هذه النقاط توافق الحكومة الافرنسية على نقل كتاب الجيوش الى الدولتين مع الاحتفاظ بابقائها تحت القيادة الافرنسية مادامت الظروف لا تسمح بممارسة القيادة الوطنية بممارسة تامة .

وكان مفهوماً من المفاوضات والاحاديث الخاصة انهم يريدون ان يكون للغة الافرنسية والثقافة الافرنسية مركزاً متفوقاً في المدارس السورية فضلاً عن المركز المتفوق الذي يريدونه للمعاهد الافرنسية وان يكون لرعاياهم وتجارهم واقتصادياتهم مثل هذا المركز ، وان يكون لهم مطارات وقواعد استوائية . ومن عجيب فتحهم وروحهم الحمقاء انهم لم يكتفوا بهذا الثمن الفادح لتسليم مقاليد الجيش بل ارادوا ان تبقى قيادة هذا الجيش ايضاً في ايديهم ! وهذه النقطة لم تكن ترد في الاحاديث والمفاوضات الخاصة ولكنهم لم يروا بأساً في وضعها رسمياً في المذكرة زيادة للوزنة !

وقد رأت الحكومتان السورية واللبنانية الشطط والنية السيئة المبيتة فاجتمع رئيسا الجمهوريتين واركان حكومتيهما وقرروا رفض المذكرة وقطع المفاوضات والقاء جميع التبعات التي يمكن أن تنجم عن هذا الموقف على عاتق الحكومة الافرنسية كما قرروا توحيد الجهود والمساعي للدفاع عن سيادة البلدين واستقلالهما ، وأرسلوا مندوب فرنسا مذكرة جوابية ضمنوها ذلك وطالبوا بانسحاب جميع القوات الاجنبية بما في ذلك القوات الافرنسية وجلائها عن اراضيها وتسليمها كتاب الجيش الوطنية في اقرب وقت وبدون قيد وشرط وقد أرسلوا مذكرة الى الدول الحليفة والصديقة سردوا فيها موقف فرنسا المتعنت وتبنيها للعدوان بما ترسله من امدادات عسكرية لاضرورة لها ومطالبتها بما ليس بسيادتها واستقلالها اللذين اعترفت بهما ، وطالبوا بتدخلها واستعمال نفوذها لجلها على سحب جيوشها مع سائر القوات الاجنبية من البلاد .

ولقد كان الافرنسيون بدأوا منذ قدوم الامدادات بتصرفات استفزازية في مناطق ومناسبات عديدة من إطلاق النار وإقامة التحصينات وإزعاج الناس وسلبهم وتدمير فتن مسلحة يقوم بها انصارهم ومأجورهم ، وكان كل ذلك يحدث رد فعل في الحكومة والشعب ويزيد من هياجهم ، فقابل الافرنسيون هذا بتحديات جديدة

في دمشق نفسها حتى انزلوا سرايا الجيش والفصائل السنغالية إلى الشوارع حيث أخذوا يتحرشون بالناس، وأخذت الحالة تزداد توتراً وحرراً؛ وأخذ الناس يدعون للجهاد ومجلس النواب يدرس قانوناً للتجنيد لتكوين جيش وطني يعتمد عليه، حتى إذا قارب شهر مايس نهايته كان التوتر قد بلغ ذروته بين الطرفين، وانتقل البغي الافرنسي الى طور علني وجدي .

ولقد وقعت في يد الحكومة السورية وثيقة خطيرة تدل على ما كان الافرنسيون يزمرونه من غيظ من العهد الوطني ورجاله ويبيتونه له من نيات شريرة جنونية، حيناً رأوا رجاله يقفون موقف الرفض البات من مطالبهم، والارض التي بذلوا الجهود الطويلة في سبيل توطيد اقدامهم الاستعمارية عليها تنساح من تحتهم . وقد ختمت الوثيقة بالعبارة التالية : اطلبوا من الافرنسيين ان يصبروا بضعة ايام وقد لا يتجاوز صبرهم بضع ساعات ، وعند ذلك نشرع في المجزرة الكبرى. وليكن كل واحد مستعداً. وسنصفى الحساب كله في ضربة واحدة! وهناك وثيقة اخرى وزعت قبل هذه بأيام بصفة بيان سري من القيادة العامة في دمشق يعين فيها المواقع التي يجب أن ترابط بها القوات وتذكر ان واجب فرنسا وشرفها العسكري يقضي بإبادة جميع العناصر التي تريد إخراج فرنسا من سوريا ، وانه يجب احتلال جميع دوائر الحكومة السورية ومؤسساتها كما يجب منع سوريا من الاتصال بالدول العربية المجاورة؛ ويجب إدارة البلاد من قبل حاكم عسكري . وقد رسم البيان الخطة اللازمة لاحتلال دوائر الحكومة وقصر الرئاسة ودور الوزراء والبرلمان السوري ودوائر الشرطة والدرك والبلدية ثم احتلال المدينة احتلالاً تاماً والقبض على خصوم فرنسا، وذكر في هذا البيان الخطير الذي وزع في دمشق ان تعليمات خاصة أرسلت الى باقي المدن السورية ليكون العمل مشتركاً والضربة شاملة في آن واحد . وهذا البيان مؤرخ في ٢٢ مايس ١٩٤٥ أي قبل المجزرة بأسبوع وبعد تقديم المطالب الافرنسي ورفضها بخمسة أيام ، وقد نقل في هذا الظرف نفسه نساء الفرنسيين وأطفالهم إلى المطار ، وكل هذا دليل ساطع على أنهم كانوا يسكرون في ما ينتوون عمله عن تدبير وبينة وتفاهم وان المجزرة قد رتب ترتيباً ولم تكن مرتجلة .

وفي تاريخ ٢٩ مايس بوغنت دمشق بقنابل المدفعية تقصفها وتحاول دكها ،

وبوغت الناس بوابل من النار من اماكن متعددة ومستحكمة كانت في ايديهم ، واختصوا بعنايتهم دار البرلمان حيث كان من المتوقع ان تنعقد جلسة يشهدها الوزراء . فتعمدوا قذفها راخذها بنطاق النار ، وقد ابيحت المدينة للفصائل الافرنسية والسنغالية فأعملت فيها يد النهب والسلب والتحريق والتدمير ، واستمرت المجزرة نحو اربعين ساعة توقفت اثناءها قليلاً بطلب الممثلين السياسيين لنقل نساءهم واطفالهم ثم عادت الى شدتها كأن المعركة معركة حربية رسمية . وقد وقع مثل هذا في المدن السورية الاخرى بحيث كانت سوريا خلال هذه الساعات تموج بالنار والدماء والاشلاء والتحريق والتدمير . وقد تجاوز العدد المعروف من القتلى الستائة ومن الجرحى الألفين ، وقدرت الخسائر بعدة ملايين ، وسجل المراقبون اعمال النهب الواسع ، واكتشفت جثث كثيرة ممتل فيها ابشع قميل .

وتكررت مأساة الأهمال والارتجال والبلبلة وعدم الاستعداد التي كانت في العهد الوطني الأول وفي عهد فيصل قبله ، فلم تكن الحكومة والشعب على استعداد للدفاع المجدي والوقوف في وجه العدوان في اكثر المواقف ، ولم تفد الاحداث السابقة عبرة وعظة ما ، على ان قوات الدرك والشرطة وكثيراً من الشباب في دمشق وحماه وحلب وغيرها قد سجلوا مواقف بطولة واستبسال في سبيل ود العدوان . وقد سلم متطوعة الدروز في الجيش سلاحهم وامكن اعتقال الضباط والقوات الافرنسية الاخرى في الجبل كما امكن حصر واعتقال القوات الافرنسية في درعا وبعض الاماكن الاخرى .

الدخول الانكليزي

ولقد كانت الحكومة السورية دائبة الاتصال بالدول الحليفة وخاصة ببريطانيا التي كانت ضمنّت لسوريا تحقيق استقلالها وحكمها الوطني ؛ ولقد نصحتها هذه بالتفاهم مع فرنسا كما نصحت فرنسا بعدم الغلو ، غير ان الحالة ظلت تشتد توتراً ، فلما بلغ الموقف ذروته واشتدت المجزرة ناشدت الحكومة السورية بريطانيا مساعدتها ووفاءها بوعدها ، فسارعت هذه الى اصدار امرها الى قواتها بالتدخل واعادة

النظام ورد الافرنسيين الى ثكناتهم كما ارسلت مذكرة الى ديفول فخبيره
باضطرابها الى ما قررت وتطلب منه اصدار الاوامر اللازمة تقادياً من الاصطدام
بين القوى الانكليزية والقوى الافرنسية . وقد نفذت القيادة الانكليزية الأمر بما
تحت يدها من قوى في سوريا وبما جلبته من قوى مساعدة من فلسطين في ٣١
مايس وما تلاه من أيام حتى غدت القوى الافرنسية كالأسيرة في ثكناتها ووقفت
المجزرة عند الحد الذي وصلت اليه .

- ٥ -

اهتمام الانكليز والاميركان للمحادث

ولقد كان اهتمام الحكومة البريطانية بالغائناء اللازمة واشتدالى درجة الخطورة
في لحظاتها الاخيرة ، حتى لقد عقدت الوزارة جلستها في الليل في مجلس النواب
حيث كان منعقداً ، وكان وزير الخارجية يتردد بين غرفة الوزارة وقاعة المجلس
لينقل للأعضاء تطور الأزمة ، وكان الاعضاء يقابلون خبر قصف الافرنسيين دمشق
بالاستنكار كما قابلوا خبر صدور الامر بالتدخل العسكري بالهتاف .

وكذلك كان اهتمام الحكومة الاميركية ، حيث كانت المشاورات مستمرة
بينها وبين الحكومة البريطانية خلال الأزمة إلى أن وصلت إلى ذروتها .

وقد صدر عن وزارة الخارجية الاميركية تصريحات تنديدية بموقف فرنسا وما
لاختلال الامن في الشرق الاوسط من تأثير في الجهود الحربية في الشرق الأقصى .

ولقد كان اهتمام الصحافة الانكليزية بالعالم منذ اخذت الامور تتأزم ، وكانت
توجه التنديدات القارصة الى فرنسا لتجاهلها ذهنية العالم الجديدة وإصرارها على
الاستمرار في ذهنيته العتيقة ؛ كما كانت تطالب الحكومة بالوقوف موقف الحزم
واشعار سوريا بصدق ضمان بريطانيا لاستقلالها ووفائها بوعداتها .

كذلك اهتمت الحكومة السوفيتية اهتماماً كبيراً للموقف وارسلت الى
الحكومات الاربع الكبرى انكيترا واميركا وفرنسا والصين مذكرات لفتت

نظرها إلى ما كان من عدوان القوى الافرنسية على المدن السورية وسكانها بالمدافع والطائرات والجنود واستنكرته اشد الاستنكار وطلبت العمل المشترك في ايقافه، وحملت محطات الاذاعة الروسية عليه حملات شديدة .

ولقد كانت وفود الأمم تعقد اجتماعاتها في سان فرانسيسكو من أجل توطيد نظام هيئة الأمم وميثاقها ، فاستغل العرب الذين كانوا قد جمعوا شملهم في تشكيلة الجامعة العربية هذه الاجتماعات ، وأثاروا القضية وأذاعوا أخبار العدوان الباغي ، فكان لذلك رد فعل استنكاري شديد في مختلف أوساط العالم السياسية والصحافية ، ولا سيما إن سوريا كانت قد انضمت إلى صفوف هذه الأمم وكان مندوبوها في سان فرانسيسكو يشتركون مع مندوبي الدول الاخرى في وضع نظام العالم الجديد القائم على الحق والحرية ، وأصبحت بذلك معترفاً باستقلالها وسيادتها واقعيّاً وطبيعياً ومتخلصة من صفة الانتداب دولياً .

تمخضت فرنسا ومضت

وطبيعي أن تدخل الانكليز على الوجه الذي تدخلوا به ووقوف اميركا الى جانبيهم والضجة التي أثارها معاقبتهم قد أحدث استياءً شديداً في نفس ديفول والأوساط العسكرية والاستعمارية الافرنسية ؛ وإذ لم يكن في إمكانهم أن يمنعوا التدخل الانكليزي بالقوة فقد رضخوا له ؛ ولكنهم أخذوا يقابلون الهجوم بهجوم معاكس ، فيعززون صراحة حيناً وتلميحاً حيناً آخر ما كانت من الانكليز الى ما يبيتونه من نية باخراج فرنسا من سوريا والحلول محلها بالرغم عن تظاهرهم ، كما أخذوا يبدون دهشتهم من مناصرة الانكليز لموقف سوريا المتعنت وتآليهم عليهم العالم بينما لم تكن المطالب الافرنسية إلا مثل ما يتمتعون به أنفسهم في مصر والعراق والأردن . وأخذوا في ذات الوقت يذيعون أن ما كان في سوريا إنما هو من عناصر شغب لا تمثل الشعب وأن ما يطلبونه لا يتعارض مع استقلال سوريا وسيادتها وإنه نتيجة لما كانت تحمله من التزامات دولية لم تلقها عنها بعد الى آخر الاسطوانة السمجة التي اعتادوها دون مبالاة بما تنطوي عليه من حق وقبح وتناقض .

ولا يملك الانسان نفسه من الدهشة من صلف فرنسا ومكابرتها وعنادها وحقها وروحها الاستعمارية الباغية دون تفريق في الاشخاص والادوار والامكنة بالرغم مما ذاقته من مرارة كأس الاحتلال والهوان . وما كان من انهيارها الحربي والحلقي والاقتصادي ، وبالرغم مما وقع عليها من لطمة قاسية حينما بغت على حكومة لبنان في خريف عام ١٩٤٣ على ما سوف نذكره بعد وما أثاره بغيها من دهشة العالم واستنكاره وتقريعه .

ومع أن من الصعب أن يؤمن المرء بإخلاص الانكليز في موقفهم وفي دعواهم بأن لا مطمع لهم في سوريا ولبنان ، ولا سيما إنه قد كانت لهم بعض مظاهر ومواقف مثيرة للريب ذكرناها في حينها كما كان مثل ذلك في حادث لبنان الذي أشرنا اليه آنفا ، ثم إنه قد كان بينهم وبين الافرنسيين تشاد قديم وحديث عليها ، مما يجعل المرء يتوقع أن يتقاضوا ثمن موقفهم بشكل من الأشكال وفي وقت عاجل أو آجل فان تدخلهم أثار موجة ارتياح وشكر عظيمة في سوريا حكومة وشعبا ، وجعلهم ينظرون اليهم في وقته الذي جاء فيه كالمقذ لهم من اللجة الهائلة التي سقطوا فيها وكادت تبئلهم .

تضامن البلاد العربية في الحادث

ولقد كان للبغي الواقع رد فعل شديد في البلاد العربية فأضربت فلسطين والأردن والعراق تضامناً مع سوريا ، وحملت صحافتها حملات شعواء على فرنسا وطالبت الحكومات العربية بقطع علائقها بها وإعلان المقاطعة الاقتصادية عليها ، وقدمت الحكومات احتجاجاتها الشديدة وقامت باتصالات سياسية متنوعة بسبيل ذلك ، وتناولت البرلمانات العربية المسألة منددةً بحجة ، وانعقد بعد أيام قليلة مجلس الجامعة العربية فكان موضوع سوريا وكارثتها موضوعاً رئيسياً فيه . وقد أرسل الملك فاروق رسالة قوية تليت في الاجتماع جاء فيها فيما جاء « لقد أصيبت مدن سوريا العزيزة في الحوادث الأخيرة إصابة مفاجئة أحزنتني وأحزنت شعبي ، ويعزيني فيها أنني أعلم أن النضال عن الحق شرف والذة . فلنعمل لاستقلال

سوريا ولبنان وسيادتهما الكاملين ولنعمل لاستقرار الامن والسلام فيها ، وليكن الجامعة الدول العربية المقام الذي نوده هذا وتريده الامة العربية كلها . فان في قوة الجامعة قوة لجميع اعضائها . وقد شرح سعد الله الجابري أدوار الموقف وتطوراتها ومطامع فرنسا وتمحلاتها ثم صفحات بغيها اللئيم ووحشيتها فيه ، ومن جملة ما ذكره أن ممثلي اميركا وإنكثروا اندعاشاً بما قاله لها من مطالب فرنسا الثقافية والاقتصادية والعسكرية ولم يصدفوا ذلك إلا بعد أن قرأوا المذكرة الافرنسية ، وأن ممثل اميركا قال له إن الاذاعة الافرنسية كانت تذيع والعدوان في شدته أن القوى الافرنسية لن تكف حتى ترضخ الحكومة السورية للمطالب وتوقع على الاتفاقيات المعروضة . وقد خطب رؤساء الوفود خطباً قوية استنكروا فيها عدوان فرنسا وأعلنوا تضامنهم مع سوريا الى النهاية ، ثم قرر المجلس تأييد سوريا ولبنان في طلب الجلاء العاجل لجميع القوات الافرنسية من اراضي الجمهوريتين وتحميل القوات الافرنسية تبعه الخسائر والضحايا التي أوقعتها في سوريا واعتبارها في موقف المعتدي . وبذل الجهود المشتركة في سبيل تحقيق الجلاء العاجل .

موقف لبنان اللبناني ونضائه مع سوريا

ولقد حرصت سوريا على أن يكون لبنان بنوع خاص متضامناً معها في الموقف لانه موقف مشترك يتصل بلبنان يمثل ما يتصل بسوريا ، ولأن فرنسا تطالب لبنان وتقف منه يمثل ما تطالب سوريا وتقف منها من أجله ، ولا سيما إنها تعلم ما لفرنسا في لبنان من انعطاف قوي وأن أي استقرار افرنسي فيه يهدد أمنها ومستقبلها . ولقد كان لبنان والحق يقال مستجيباً استجابة تامة حكومة وشعباً ، ولا سيما كان يقوم فيه عهد وطني ، وكان اكتوي بنار كارثة باغية قبل مدة قليلة كانت من آثارها إراقة دماء واعتقال رئيس الجمهورية وزرائه وبعض نوابه ، وكان من آثارها ولادة لبنان العربي القومي على ما سوف نذكره بعد ، فوقفت الحكومة منذ البدء مع سوريا موقفاً واحداً في رفض المطالب ، وأضربت بيروت والمدن الرئيسية أياماً عديدة ، وعقدت الهيئات الوطنية على مختلف ميولها مؤتمراً قومياً متسقاً مع المنهج

الاستقلالي الوطني الجديد الذي انتهجه لبنان ، ودعا الى التطوع بسبيل الاستعداد للطوارئ ، وفعل مثل هذا المجلس النيابي ؛ وحاول أنصار فرنسا تخفيف حدة التضامن اللبناني السوري فكان نصيبهم الاخفاق .

- ٦ -

الجهود في سبيل خطة الجلاء ونجاحها

ولقد تكثفت الجهود بعدئذ في سبيل الخطوة الحاسمة وهي الجلاء التام دون تقيد بمعاهدة ومنع مركز ممتاز ؛ وكان هذا التصميم سابقاً على البغي فزاده هذا قوة وشدة . وقد سنحت الفرصة الملائمة في أواخر عام ١٩٤٥ ؛ فقد عقدت الحكومتان الانكليزية والافرنسية اتفاقاً على تنظيم انتقال جيوشها في سوريا ولبنان ، رأت فيه الحكومتان اللبنانية والسورية افتتاحاً على استقلالهما وسيادتهما وفرصة لاثارة قضية وجود جيوش أجنبية في بلادهما والمطالبة بإجلائها عنها ؛ فاحتجنا على الاتفاق من جهة لدى الحكومتين وسارعنا من جهة أخرى إلى عرض القضية على مجلس الأمن مطالبين بإجلاء ولم يسع بريطانيا وفرنسا إلا أن تصرحا عزمهما على الجلاء ، وقالتا بريطانيا إن دخول الجيوش البريطانية الافرنسية الى سوريا ولبنان لم يكن المقصد منه إلا منع الألمان من اتخاذهما قاعدة أو لاً وتأمين مواصلات الحرب الى الشرق الأقصى ثانياً . وأبدت أميركا مطلب سوريا ولبنان وقالت إن السياسة التي أقرتها هي جلاء الجيوش الأجنبية عن جميع بلدان الأمم المتحدة فور طلبها وإبداء رغبتها في ذلك كما أبدت الطلب روسيا والصين ودول أخرى في المجلس . ثم اقترحت أميركا صيغة قرار بنصيحة الدول الأربع أي انكلترا وفرنسا وسوريا ولبنان بالاتفاق على الجلاء وتنفيذه في أسرع وقت ممكن ، ووافقت اكثرية المجلس الساحقة على القرار غير أنه لم يكتسب الصفة القانونية لأن روسيا امتنعت عن التصويت بسبب عدم تحديد موعد حاسم للجلاء وتعليقه على مفاوضات . ومع ذلك فإن بريطانيا وفرنسا لم يسمعها إلا أن يعطا استعداداً لتنفيذه في أسرع وقت ممكن ما دام أن اكتابة المجلس أقرته . ثم تم الاتفاق بينها على أن يكون جلاء جيوشها معاً عن سوريا في ١٧ نيسان عام ١٩٤٦

المصادف ليوم الاربعاء ١٦ جمادى الأولى ١٣٦٥ . وفي الموعد المذكور تم الجلاء عن أراضي سوريا واقامت بمناسبة ذلك صباح اليوم التالي حفلة عرض عظمى اشتركت فيها وفود الحكومات العربية وفصائل من جبهتها ، وكان عبداً قومياً رائعاً دامت حفلاته المتنوعة اياماً والقي رئيس الجمهورية في بعضها خطاباً جامعاً على الجماهير عن حلقات الحركة العربية والنضال وعن العهد السوري العربي الجديد كما اقيمت في بعضها الخطب والتمتازات عن الحركة العربية وسيرها ، وفاضت فيه دموع الفرح من عيون العرب لهذه النهاية السعيدة بعد كفاح طويل استمر خمسة وعشرين عاماً لم يفتقر ولم يهين ، وقاست سوريا فيها ما قاست من عظيم المحن ، وتحملت ما تحملت من جسيم التضحيات . وكان من غمام فرحة سوريا انها أولى البلاد العربية - في غير جزيرة العرب - التي تمت لها هذه السعادة بعد هذه الحقبة ، وتكملت فيها الحركة العربية القومية بالنجاح ، وأخذ علمها يخفق وحده في سماها غير مقيدة بأي قيد . وكان هذا حقها لأنها البلد الذي نشأت فيه الحركة العربية الحديثة وترعرعت وسام رجالها بالنصيب الاو في من الجهود والتضحيات في سبيلها .

ولقد انفتحت أمام سوريا بهذه النهاية السعيدة الآفاق لتنتقل منها في سبيل اتمام ما تشجعت له من رسالة الحركة العربية الحديثة بما سبيله ان تيسر لها حياة مستقرة وقيادة صالحة مرشدة قوية ائتمية يكون لها من ايمانها وعقلها وقلبها وحزمها وتجربتها ومثلها العليا وافقها الواسع ودعوتها الاصلاحية ، ونزعها التجديدية او الانقلابية ما يجعلها تتسق مع الدور الابحائي الذي تستقبله البلاد وتستطيع ان تنظم وتستغل الامكانيات والمواهب العظمى الكامنة في البلاد والشعب ، وان تغلب على مظاهر الضعف الموروثة من جهل وفقر وفوضى في ظل ما نالته من حرية من كل شائبة وزوال أي عائق خارجي لذلك الانطلاق .